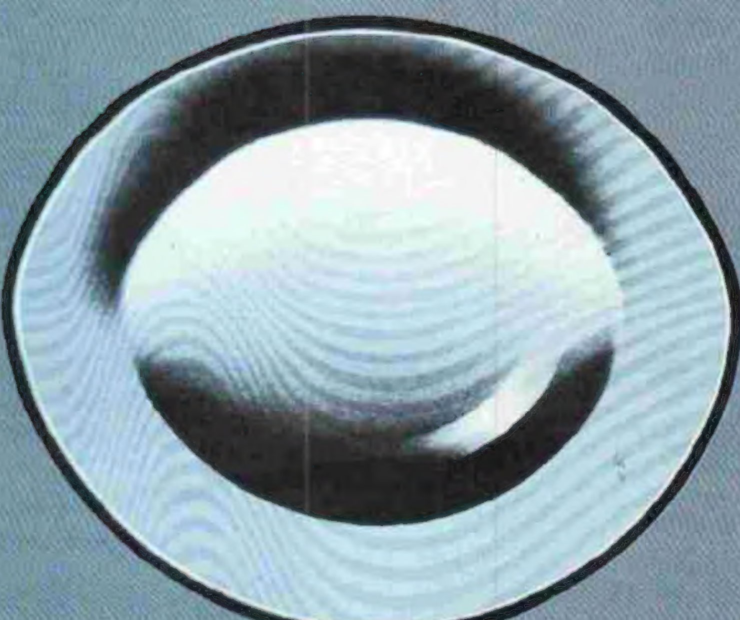
حسن العشماوي

تركة الشيخ عليش



الناشر

تركة الشيخ عليش

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

حسن العشماوي

تركة الشيخ عليش

الناشر
دار الفتح للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

الإهـــداء

** إلى من ينظر في مشاكل الناس خلال التقارير وهمس المقرّبين، فلا يدري عنها شيئاً..،

■ حسن العشماوي

ـــ .. ـــ .. ـــ

بسم الله الرحمن الرحيم

[١]

إن مشاكل الناس لا تعني عنده شيئاً غير تلك الأوراق التي ترد ـ بعد تحقيقها من مركز البوليس والنقط التابعة له ـ لترصد في جدول.. «الشكاوى الإدارية». ثم هذه التأشيرة التقليدية التي تعلّمها من رؤسائه «تقيّد شكوى فلان ضد فلان مادة (كذا...) وتحفظ إدارياً» بهذه التأشيرة تنتهي مشكلة «الناس» عنده، وتسقط الشكوى ـ كشف الايراد الشهري للنيابة التي عهد النائب العام إليه بشئونها.

إن كشف الايراد ـ الشهري والسنوي ـ هو الشغل الشاغل لوكيل النيابة في كل نيابة من نيابات القطر، هو الذي يستطيع به أن ينال رضاء رئيسه ثم رضاء النائب العام حيث يقبع في مكتبه نيابة الاستئناف في القاهرة فينهل منه مع «كتاب شكر وتقدير». إنه الدليل الوحيد على أنّ وكيل النيابة استطاع «التصرُّف» في جميع ما ورد إلى نيابته من شكاوى وعوارض ومخالفات وجنح وجنايات... أكوام من الأوراق تَرِدُ إليه يومياً ليتصرّف فيها بالاستيفاء أو الحفظ أو التقديم إلى المحكمة أو إرسالها إلى رئيس النيابة صاحب الحق في حفظ الجنايات أو إحالتها إلى القضاء.

الانتهاء من هذه الأكوام وإحالتها إلى المحكمة أو حفظها في «الأرشيف» هي التي يستطيع بها وكيل النيابة «كنس» نيابته.. لتظلّ نظيفة إذا جاءه المفتش، ليتفقّد الحالة ويكتب عنه تقريره السنوي.. من الممكن

بجوار عملية «الكنس» أن تشغل المفتش بأمر مّا إذا جاء إلى النيابة.. وفي هذا يتفقد وكيل النائب العام وخاصة في مجال «الشكاوى الإدارية» التي ترد.. وتحفظ.. فعلى وكيل النيابة «الناجح» أن يطلق على الشكوى إسماً ملفتاً للنظر.. إسماً يجذب المفتش أو رئيس النيابة إلى طلب هذه الشكوى بالذات ليجد وراء الاسم الضخم «لا شيء» فينشغل بذلك عن تعقُّب حقيقة أعمال وكيل النيابة وأخطائه في تقديم الجرائم أو حفظها.

ولا ينسى صاحبنا أبداً كيف أنَّ رئيس النيابة طلب من كشف نيابته الشهري شكويين لأن أولاهما قُيِّدت تحت عنوان «شكوى فلان ضد فلانة مادّة ادّعاء بحريق عمد» والثانية تحت عنوان.. «شكوى فلانة ضد فلانة، مادة ادّعاء بقتل عمد». لقد هال العنوانان رئيس النيابة ثم لم يجد فيهما شيئاً، فردُّهما«لإنهاء اللازم» وجاء المفتش بعد شهور، فلفت نظره ذات الشكويين، واطَّلع عليهما وردّهما إلى مكانهما في «الحفظ» وهو يبتسم، فإنَّ ادّعاء الحريق العمد شكوى من شاب ضد بنت الجيران أنها حرقت قلبه حبّاً وصدّاً.. وأن ادّعاء القتل العمد شكوى من أُمّ فقدت صغيرها من جارتها أنها «حسدته» فمات، ودليلها انّ عينها «مدوّرة» تحسد كلّ ما تراه.. بمثل هذه العناوين الصارخة يمكن لوكيل النيابة أن يشغل رئيسه والمفتش معاً.

إن وكيل النيابة لا يعنيه شيء من مشاكل الناس التي تكمن وراء تلك الأكوام من الأوراق.. إنّه قلّما ينفعل مع الأحداث الحقيقية ويشعر بها وبوطئتها على «المجتمع» الذي يمثّله هو في حقّه العام أمام القضاء..

إنه يحقّق ويحفظ الأوراق ويتلقى الشكاوى ويترافع أمام المحاكم ويسمع الأحكام، يتقبلها أو يستأنفها وفقاً للتعليمات التي تسلّمها عند تعيينه، مجلداً ضخماً حسن الطبع، والتي تتوافد عليه بعد ذلك مذيّلة باسم النائب العام، الذي لا يعنيه اسمه وإنما يعنيه صفته.

وساعات العمل الرسمي في مقرّ النيابة لا تسمح عادةً لوكيل النيابة أن يتصرّف في جميع «الوارد» ولذلك يحمل إليه الحاجب كلّ يوم حمولة كبيرة منه إلى المنزل، يقضي في تصفحها والتصرّف فيها جانباً من الليل.. ويجد صاحبنا في ذلك متعة أكبر مِمّا يجدها غيره من الزملاء والموظفين في الجلوس في المقهى أو النادي. إنّ صاحبنا لا يحبُّ لعب الورق، وتزعجه «الطاولة» ويضيق ذرعاً بالشطرنج، وتحزُّ في نفسه الأحاديث عن أخبار الناس والتعرُّض لأمورهم الشخصية، ولذلك فهو لا يجد له مكاناً في المقهى أو النادي حيث ينشغل زملاؤه بمثل هذه الأمور.. ولذلك يؤثر البقاء في البيت يقرأ أو يكتب قليلاً.. ويتصرّف في الوارد حتّى يغلبه النوم إلى أن توقظه «إشارة حادث» يقرأها على عجل، ويؤشّر عليها ويرتدي ملابسه ليخرج إلى مكان الحادث حيث يقضي بقية ليله ليعود في الضحى إلى النيابة يواصل تصرفاته في مشاكل الناس.. أو في «الأوراق الصامتة» التي ينظر من خلالها إلى كل مشاكل الناس.

هذه الأوراق لا تنبئه بشيء عن حقيقة مشاكل الناس التي ترده على صورة شكاوى، ولا عن حقيقة مآسي الناس التي ترد على صورة جنايات قتل وخطف وسطو و«عوارض» وقعت قضاءً وقدراً، ولا عن حقيقة تناقض حياة الناس مع «القانون» ذلك التناقض الذي يرد على صورة جنح ومخالفات، ارتكب فيها «أحد الناس» ما اعتبره القانون جرماً، وهو لا يفهم لتجريمه سبباً ولا مبرراً، ولكنه يدفع ضريبته غرامة أو حبساً، لأن القانون أراد ذلك، تماماً كما تفقد الأم ابنها لأنّ الله أراد لها ذلك.. مع فارق رئيسي، أنّ الناس يؤمنون بعدالة الله ورحمته، ولا يثقون في عدالة القانون ورحمته، إنّ الله يحكم دنيانا وآخرتنا، فقد لا نفهم الحكمة وراء قدره، ولكن القانون يحكم دنيانا وحدها، فيجب أن يكون مفهوماً لكل من يسري عليه.

* . * . *

كان صاحبنا وكيل النائب العام يجلس إلى مكتبه في منزله ليلة التاسع من أكتوبر ١٩٤٧، ينهي «إيراد» اليوم، وما تبقّى من إيراد الأمس، ويجري في الأوراق بعينيه مسرعاً يقرأ سطراً ويسقط سطوراً، لأنَّ «الخبرة» علَّمته كيف يفهم السطور دون أن يقرأها. . ثم يؤشر في نهاية كل سطر «باللازم» بقلمه ذي **المداد الأخضر** ـ دليل السلام ـ ذلك اللون الذي عُرِفَ به بين زملائه وكلاء النائب العام الذين يستعملون عادةً **المداد الأحمر**، دليل السلطة التي في يدهم بوصفهم ممثلي النائب العام في أنحاء القطر كله.

وقرأ ـ وهو يتثاءب استعداداً للنوم ـ آخر الشكاوى؛ إنها شكوى واردة من «نجع[1] سحاب» الذي لم ترد منه ورقة واحدة طول العام الذي قضاه صاحبنا في هذه النيابة. . إنه النجع الذي من أبنائه كاتب التحقيق الذي اعتاد أن يصحبه معه في كل التحقيقات لِدَمَاثة خُلُقه وحسن خطِّه وإلمامه بتفاصيل «تدبيج المحضر» على نحو يرضي الرؤساء. . محكمة الجنايات أيضاً.

شكوى ترد من «نجع سحاب»، هذا أمرٌ غريب حقّاً. . والأغرب أن تكون الشكوى ضد عمدة النجع شخصياً. . وقرأ صاحبنا الشكوى والتحقيق بدقة أكثر مِمّا اعتادها مع سائر الشكاوى.

إنها شكوى من أحد أبناء النجع، يطالب فيها بنصيبه من إيراد الأرض المشتركة المملوكة لأبناء العائلة، والتي يتصرَّف فيها العمدة[2]، بيعاً ورهناً وشراءً وتأجيراً، بصفته **أرشد العائلة**. . وسئل العمدة، أو «كبير النجع» كما يسمُّونه، فلم يقل شيئاً إلاّ أنَّ الشاكي مسرف، أنفق كل ماله في القمار

---

(١) النجع: قرية كبيرة يتبعها قرى صغيرة، وعمدة النجع هو الذي يحكم هذه القرى الصغيرة بالتبعية.

(٢) العمدة: حاكم القرية أو النجع

وعلى بنات البندر[1] . . وأنه - أي الشاكي - لا يزال مديناً للعمدة بمبلغ كبير من المال لم يحاول أن يطالبه به تقديراً لصلة القربى وزمالة الطفولة والشباب . .

لا شيء في الأمــــر . . .

الشاكي يستشهد بأخيه، والعمدة يستشهد بذات الأخ، وهذا الأخ - عبد الصمد أفندي - يؤيد العمدة في أقواله، وعلى كل فالنزاع مدني بحت، يدور حول ملكية أو ايجار وديون مالية، ويجري المداد الأخضر في نهاية المحضر بالعبارة التقليدية . . يقيد شكوى عبد الحميد سحاب ضدّ الشيخ عليش سحاب، مادة نزاع مدني، ويُكتب للمركز[2] لإفهام الشاكي بالالتجاء إلى القضاء وتحفظ الشكوى إدارياً . . ولم يكن صاحبنا يدري، وهو يوقّع هذه التأشيرة، ما وراءها . . لم يكن يدري أن خلف الطَرْق الذي يسمعه على الباب أمراً خطيراً يتعلّق بذات الشكوى التافهة التي ما كانت تحتاج منه إلى ذلك الاهتمام غير المألوف منه في قراءتهـــــا . . . .

وكان الليل قد جاوز منتصفه حين وقّع صاحبنا قرار الحفظ، وقام بخطى متثاقلة إلى الباب يفتحه . . ليرى وراءه المنظر المألوف في مثل هذا الوقت من الليل: عسكري من المركز يؤدّي التحية ضارباً الأرض بحذائه الثقيل، فيحدث صوتاً يوقظ الأموات في القبور. فما بالك بالنيام في البيت. وتمتد يد العسكري بإشارة يقرأها وكيل النيابة على عجل . . ثم يتوقف ويقرأها ثانية على مهل . .

---

(١) البندر: المدينة، ويطلق الاسم أيضاً على مخفر الشرطة الخاص بالمدينة . .

(٢) المركز: مجموعة القرى المحيطة بالبندر، ويطلق الاسم أيضاً على مخفر الشرطة الذي يشرف على هذه المجموعة من القرى.

إنها إشارة من النقطة[1] التي يقع في دائرتها «نجع سحاب» تحمل نبأً غريباً. العمدة يبلغ النقطة.. والنقطة تبلغ المركز أنه بينما الشيخ عبد الحميد سحاب يخرج من بيته بعد الظهر، يطلق عليه عيار ناري من مجهول، ويموت في الحال.. ولم يعرف الفاعل.. جاري البحث عن القاتل والسلاح.

عبد الحميد سحاب.. ذلك الذي حفظت شكواه منذ لحظة واحدة.. مات مقتولاً بمجهول.. ومنذ الظهر ونحن الآن نستقبل ـ بعد منتصف الليل ـ يوماً جديداً. لماذا كل هذا التأخير؟. بل لماذا يتم الإبلاغ عن حادث قتل في نجع سحاب الذي لا ترد منه قضية أبداً؟ جميع من في المركز يعلمون أنّ هذا النجع ترتكب فيه كثيـر من الجرائم، ولكن لا يبلُغ عنها، لأن العمدة ـ الشيخ عليش سحاب ـ يحلّها بطريقته الخاصة.

ويطول صمت وكيل النيابة حتى «يتنحنح» العسكري ليذكُر بوجوده، فلا يملك صاحبنا إلاّ أن يؤشر على إشارة الحادث «وصلت الساعة الواحدة صباحاً، وقائمون للتحقيق» ويكتب التاريخ ويوقّع توقيعاً لا يمتُ لاسمه بصلة.. ثم يناول الإشارة إلى العسكري الذي يعيد أداء تحيته المزعجة، وهو يقول: إنّ المأمور[2] وكاتب التحقيق ومعاون المباحث سيمرون على «سعادتك» بالسيارة الآن.

ويعود صاحبنا إلى الشكوى الجاثمة على مكتبه، والتي كانت آخر ما تصرّف فيه قبل تلقّيه إشارة الحادث، فيعيد قراءتها وهو يرتدي ملابسه.. وتصل السيارة، فيهبط، ويسلّم على من فيها بصوت خافت، ويغوص في مقعده ساهماً بقية الطريق.. وليس هذا بالأمر الغريب على مرافقيـه. فقـد

---

(١) النقطة: مخفر شرطة صغير يتبعه بعض القرى.

(٢) المأمور: رئيس المخفر، سواء كان في البندر أو المركز.

عرفوا فيه قلّة الكلام.. وكثيراً ما ظنّوه نائماً إذا أغمض عينيه متعمداً انه يسمع ما يجري من حديث دون أن يشترك فيه.

*. *. *

ومضت السيارة، يقودها عم رياض السائق الملتحي الذي يؤثر صاحبنا أن يكون معه في انتقالاته، انفلتت تشقُّ الظلام نحو الشرق.. نحو الجبل حيث يربض النجع في أحضانه كما يعلم وكيل النيابة، وإن كان لم ير النجع إطلاقاً طوال عمله في هذه النيابة.. وأغمض صاحبنا عينيه، وجرى الحديث - متقطعاً منخفضاً - بين المأمور ومعاون المباحث، يشارك فيه همساً سيد أفندي كاتب التحقيق وعم رياض السائق، فكلاهما من أبناء النجع الذين نزحوا عنه يلتمسون عملاً خارجه...

وراح صاحبنا يفكِّر في الشكوى التي قرأها وأعاد قراءتها منذ قليل.. إنها واضحة كل الوضوح، وتصرُّفه فيها بالحفظ سليم كل السلامة.. إنها لا تدخل إطلاقاً في اختصاص النيابة العامة.. إنها من صميم اختصاص القضاء المدني، ولكن؛ هل لها صلة بهذا الحادث؟.. لم يمض على تقديمها أكثر من أربعة أيام.. وقد سارع ضابط النقطة بتحقيقها وإحالتها إلى النيابة.. وفي النيابة تمّ التصرف فيها فوراً، تصرُّفاً يحمل في طياته أن الشاكي مخطىء في سلوكه، وأن الشيخ عليش على حقّ.. فإذا كان للشاكي ادِّعاء ما، فليلجأ إلى القضاء.. وبعد أربعة أيام فقط، يُقتل الشاكي الذي كان إلى وقت قريب شيخاً للبلد.. يُقتل في وضح النهار ظهراً وأمام منزله، ولا يعرف أحد القاتل.. ولا تصل الإشارة إلى النيابة إلاّ بعد ثلاث عشرة ساعة.

إن صاحبنا لم يعتد أن ينفعل بمشاكل الناس ومآسيهم التي ينظر إليها خلال أوراق «الوارد». صحيح أنه ينفعل أحياناً بالقضية - كمشكلة أو مأساة -

أثناء التحقيق أو أثناء المرافعة أو عند سماع الحكم. . ولكن هذه الأحيان قلَّت مع مرور السنين حتى كادت أن تصبح نادرة الوقوع. ومع ذلك فهو منفعل بهذا الحادث اليوم أكثر من أي حادث آخر قام لتحقيقه منذ اشتغل بالنيابة. تُرى هل شارك هو في هذه النتيجة الأليمة بحفظه الشكوى دون اكتراث؟ هل كان بمكنه ـ وفقاً لتعليمات النائب العام الذي هو وكيله ـ ان يفعل شيئاً آخر؟ هل هناك جدوى من تصدِّي جهاز النيابة العامة كله لمشاكل الناس خلال «الوارد» الذي يحسن «كنسه» كل عام وينال بذلك تقدير رؤسائه؟ هل هناك صلة بين الشكوى المحفوظ وبين واقعة القتل؟ . . وإذا كانت هناك صلة فهل يعني ذلك أنّ العمدة له يد في حادث القتل، أم أن سلوك الشاكي المريب الذي ذكره العمدة وأيَّده الشهود ـ حتى أقرب الناس إلى الشاكي ـ هو الذي أدّى إلى قتله؟

وتوالت الأسئلة تلح على ذهن صاحبنا، وهو مغمض العينين، بينما تصل إلى أذنه ـ من حين إلى حين ـ كلمة أو جملة من النقاش الذي يجري بين الجالسين معه في السيارة. . حتى التقطت أُذنه هذا الحوار الهامس بين السائق والكاتب ومعاون المباحث:

الكاتب : دا حكم الأرشدية. . لازم نقبله.

السائق : معلوم . . الكبير معه حقّ مها كان.

المعاون : ولماذا أبلغ الكبير عن الحادث؟

السائق : تأديب للنجع.

المعاون : لماذا تأخر في الإبلاغ؟

الكاتب : راح يقول التلفون كان عطلان. . لكن دا برضه تأديب.

وهنا فتح وكيل النيابة عينيه ليقول للمأمـور:

ـ يا حضرة المأمور، نعمل المعاينة، ونرجع النقطة نحقق فيهـا. . بلاش تحقيق في بيت العمـدة.

ـ ما فيـش مانـع.

ويسمع وكيل النيابة تنهّد الرضى من السائق والكاتب معاً.. فيشعر أنه أصاب في قراره.. ويغمض عينيه ثانية يتعجل الوصول.. وأُذنه تسمع همس الكاتب إلى السائق:

ـ والكبيـر.. حا يرضى يجي النقطـة...؟

ـ الله أعلـم...

..*

كان الظلام لا يزال مخيماً عندما وصلت السيارة إلى محل الحادث في النجع، فقام وكيل النيابة بإجراء المعاينة على ضوء سراج زيت ذي فتيل يحمله أحد الخفراء.. وكان بمكان الحادث ضابط النقطة وبعض العساكر والخفراء.. أما العمدة فلم يكن هناك.. إنه نائم كما قيل لهم.. كان القتيل عبد الحميد سحاب رجل قارب الخمسين، نحيف الجسم، على وجهه سيماء الطيبة التي لم يخفها الموت... حسن الهندام.. وكان في جسمه آثار جرحين نافذين لأعيرة نارية.. وكان مسجّى أمام باب بيته في وسط النجع. ولفت نظر وكيل النيابة قلّة المتجمعين على غير ما اعتادته حوادث القتل في القرى الأخرى.. لم يكن هناك غير غلام يقف باكياً قريباً من الجثة، وامرأة تكتم نحيبها تقف في فتحة باب المنزل، ورجل يراقب المعاينة عن كثب وهو يقف بجوار عـم رياض السائق. كان الغلام ابن القتيل، والمرأة زوجه.. والرجل مؤذن المسجد وإمامه الشيخ محمود أول من وصل إلى مكان الحادث..!

وحين انتهى وكيل النيابة من المعاينة، وترك الجثة للطبيب الشرعي، كان الضوء قد أسفر، فألقى نظرة على النجع الغامض الذي سمع عنه ولم يره...

مجموعة كبيـرة من البيوت بنيت من «اللبن» المائل إلى الصفرة.. كالحة اللون، تبدو وكأنها دور مهجورة، تتكدس في حضن الجبل.. ويمتد بعضها إلى سفحه.. وشعر صاحبنا بانقباض شديد وهو يلقي هذه النظرة السريعة على النجع، وبيوته المهجورة، ودروبه المتربة.. فأسرع إلى السيارة وهو يقول:

ـ ضابط النقطة يحصُلنا على النقطة يا سعادة المأمور بالشهود..

إن نفسه تحدثه ـ وقلما كذبته ـ أنّ وراء هذا النجع، وهذه الاشارة الموجزة، وهذا القتيل المسجى على التراب.. شيئاً كبيـراً لا يعلمه.. يتمنى أن يعلمه، ولكنه يخشى ذلك.. فعلمه به يخرجه عن طريقته كوكيل نيابة ناجح، شهدت الأوراق والتحقيقات على سرعة التصرف في الايراد، وتنفيذ التعليمات.

—— .... —— .... ——

[٢]

جرى التحقيق في النقطة عادياً، شأنه في ذلك شأن كلّ تحقيق في جناية قتل فاعلها مجهول.. وسيد أفندي ـ كاتب التحقيق ـ يعلم أُسلوب وكيل النيابة في فتح المحضر وتوجيه الأسئلة وإقفال المحضر والاشارة إلى محاضر التحريات والتفتيش وإرفاقها فليس في القضية أي عناء..

سُمعت أقوال الجيران، وبعض الأقارب.. ولا شيء في أقوالهم إلّا أن بعضهم سمع عياراً نارياً واحداً، رغم أن في جثة القتيل أكثر من جرح نافذ من أكثر من عيار واحد..

المجني عليه لا خصوم له.. لم ير أحد شيئاً في وضح النهار، وفي طريق هو أكثر طرق النجع ازدحاماً.. ولم يسمع الكثيرون أعيرة.. ومحضر تفتيش ضابط النقطة ـ إذا صحّ أنه أجرى تفتيشاً ـ أسفر عن عدم وجود أسلحة في البلدة كلها.

وزوج القتيل باكية تنتحب.. لا تعلم شيئاً هي الأخرى.. إنّ كل ما استطاعت الأسئلة المتتالية أن تستخرجه من بين كل كلماتها المتقطعة بالنحيب،أن الشيخ محمود إمام المسجد كان مع القتيل في المنزل، وخرجا معاً، حيث قُتِلَ أمام باب بيته.. لا تدري كم عياراً سمعت، ولا تريد أن تدري. وحين سئلت عن ابنها أين كان وقت الحادث، راحت تلحُّ أن لا

يسأله في التحقيق، فهو غلام صغير لا يعلم شيئاً. . ولا يجوز أن يعلم شيئاً. . وانهت تضرعها بقولها والدموع تنهمر من عينيها:

ــ بلاش الولد الصغيــر.. الله يستر عليك وعلى ولايك وعيالك. . !

وتخرج من فم سيد أفندي كاتب التحقيق ـ عن غير قصد ـ كلمة «آمين. .» عميقة صادقة. . وينظر إليه وكيل النيابة متعجباً، فيطرق معتذراً. . ثم يهمس «باقولها من قلبي والله العظيم. . !».

وما أن يصرف وكيل النيابة المرأة بعد سماع أقوالها التي لم تسفر عن جديد، حتى تُسمع حركة خارج الحجرة، يستجيب لها كل من بالحجرة. . ويصفرُّ وجه كاتب التحقيق، ويقوم المامور ومعاون المباحث وضابط النقطة من مجلسهم. . ويحمل أحد العساكر كرسياً يقرِّبه من المكتب الذي يجلس إليه وكيل النيابة. . ثم يدخل رجل خلفه خفيران يحملان سلاحاً. .

ــ السلام عليكــم. .

يقولها الرجل رافعاً يده إلى رأسه، وهو يجلس على المقعد الذي أعدّه له العسكري سلفاً، ويردُّ الجميع تحيّته بأحسن منها، بينما يهمهم وكيل النيابة ـ مطرقاً ـ بكلمات لا يدري ردّاً على التحية أم تعجباً مما حدث. . وقبل أن يرفع رأسه ليواجه القادم كمحقق، تقع عينه على المحضر فإذا الكاتب قد كتب البيانات الأولية «عليش حسين سحاب، ٤٩ سنة، عمدة نجع سحّاب مركز «. . . .» مولود ويقيم بها».

وراح وكيل النيابة يحملق في الرجل بعينين محمرّتين أضناهما طول السهر. إنه رجل طويل القامة عريض المنكبين: سرى الشيب في سوالفه التي ظهرت تحت «الطاقية» التي يرتديها على رأسه دون عمامة، تواضعاً منه وإصراراً على الانتساب إلى نجعه الذي ينسج من أوبار جماله أحسن

«الطواقي» يلبس جلباباً من الحرير فوقه عباءة سوداء فاخرة. إنّ في وجهه شيئاً غريباً، ليس لمجرد الابتسامة العريضة المرسومة عليه.. وليس مجرد النظرة النافذة التي تشعُ من عينيه، وليس مجرد الأنف الطويل الواضح في وجهه الأسمر. لا.. هناك شيء آخر يتكون من مجموع هذه الأشياء وما بينهما من توافق.. هناك شيء يدعوك إلى احترامه ورهبته.. ولا تمنعك من العطف عليه برغم الاحترام والرهبة.. إنّ خلف هذا الصلف الواضح ضعف يخفيـه.

والقى وكيل النيابة سؤاله الأول محاولاً الظهور بعدم الاكتراث:

ـ معلوماتــك يا عمــدة.

ـ ما عنديش معلومات.. شيخ الخفر بلّغني.. وقلت له يقول لعامل التلفون يبلغ النقطـة.

ـ رحت مكان الحادث؟.

ـ لا..

ـ هل تشتبه في أحد؟

ـ لا.

ـ هل للقتيل خصوم في البلد؟

ـ لا..

ـ هل تعلم كم عياراً أُطلق على القتيل؟

ـ لا.

ـ هل تعلم لماذا تأخّر الابلاغ عن الحادث؟

ـ لا.

ـ وكانت «لا» تخرج من فمه في ثقة فيها عدم مبالاة حين يسمعها، مما أثار حفيظة وكيل النيابة، فقرر أن يشير إلى الشكوى التي قرأها قبل

قيامه برغم أن جميع محاضر التحريات التي سلّمت إليه من ضابط النقطة ومعاون المباحث لم تشر إليها فقـال:

ـ هل هناك نزاع مدني بين القتيل وبينك؟

ـ نزاع . . نزاع إيه . . ده زي أخويا . . أخويا تمام.

ـ هل تقدّم ضدك بشكوى أخيراً يطالب بنصيبه من إيراد العائلـة؟

ـ شكوى . . اللي بحصل بين الاخوة ما يصحش نسمّيه شكوى . . إيراد النجع في إيدي، وأنا مؤتمن عليه . . (قالها بحزم لا يخلو من تحدٍّ).

ونظر وكيل النيابة إلى المحضر، فلم يجد شيئاً من هذا قد كتب . . فقال لكاتب التحقيق معنّفاً:

ـ ليه ما أثبتش الكلام ده . . ؟

ـ وينحني كاتب التحقيق نحو وكيل النيابة هامساً . . «خللي ده بعدين لما تطلّع سعادتك رسمي على الشكوى وتضمّها . . كفاية كده . . وراك شغل في النيابة . ومش فاضل غير الشيخ محمود. اسأله في النيابة بكره هو وعبد الصمد أفندي . .». كان الرعب واضحاً على وجه كاتب التحقيق الأسمر النحيل وهو يهمس بهذا الكلام . . ثم بدأ إقفال المحضر حيث كانت الساعة التاسعة صباحاً يوم ٩ أكتوبر ١٩٤٧، وطُلب الشيخ محمود سحاب وعبد الصمد أفندي سحاب باكر للنيابة . .

وقام العمدة من مجلسه، ورفع يده بالتحية وانصرف ووراءه خفيراه وضابط النقطة ومعاون المباحث . . وأوصله المأمور إلى الباب، ثم عاد إلى وكيل النيابة يستحثّه في العودة . .

* * *

وبدأت السيارة - التي تخلّف من بين ركابها معاون المباحث - تسير غرباً إلى المدينة.. وأغمض صاحبنا عينيه.. ولم يسمع كلمة واحدة طوال الطريق لأن الجميع غرق في الصمت.. تُرى في أي أمر كانوا يفكّرون..؟

أما صاحبنا فكان في همٍّ مقيم لا بما حدث أمامه فحسب، ولكن من موقفه الذي يشعر يقيناً أنه يختلف عن كل مواقفه السابقة في التحقيقات.. إنه يحسُّ أنه لم يؤدِّ واجبه على النحو الذي اعتاده والذي يتّفق مع صفته كرجل قانون ووكيل نيابة مؤتمن على العدالة.. **العدالة في التحقيق على الأقل**، لا من حيث الوصول إلى نتيجة، ولكن من حيث شكل العدالة التي لا تنفصل في ذهنه عن جوهرها.. كان يفكّر في العمدة، وفي القتيل، وفي حقيقة عمله القضائي الذي عُهِدَ إليه به الدستور والقانون.. ومرسوم تعيينه وكيلاً للنائب العام.

هذا إذن هو العمدة الذي لم ينتقل إلى مكان الحادث، ولم يحضر المعاينة، ولم يظهر قبل وصول النيابة، أو بعدها إلى قبيل مغادرتها النقطة بدقائق.. هذا هو «كبير النجع» كما يسمّونه.. هذا هو «الأرشد» الذي تمنحه «الأرشدية» حقوقاً لا يدري وكيل النيابة أصولها ومداها.. هذا الذي يدخل غرفة التحقيق ومعه «حرّاسه»، ويقف له المأمور احتراماً، والعهد بالعمد في القرى أن يرتعدوا أمام صوت المأمور في التلفون.. هذا الرجل وراءه شيء غامض.. غامض مع وكيل النيابة، وقد يكون معروفاً لغيره.. هل يستطيع يوماً معرفته.. هذا الرجل الذي يتصوّر صاحبنا أن يديه ليست بريئة من دم القتيل، وإن أكّد أنه أخوه تماماً.. هذا الرجل الذي يمنع حضوره كاتب التحقيق من أن يؤدي عمله على النحو الكامل الذي عُرف عنه..

وذلك القتيل، وزوجه الباكية، وابنه الغلام اليتيم.. ماذا فعلوا؟.. إنّ القتيل لم يفعل أكثر من أنه طالب بشيء يراه حقّه.. لا يعنينا أن يكون

متحقاً في مطالبته أو غير محقّ. . إنه لجأ إلى «الحكومة» شاكياً، فدفع حياته ثمناً لشكواه. . ثمناً لمجرد المطالبة، لا لحصوله على حقّه فعلاً. .

وصاحبنا، الذي نقل من القاهرة إلى الصعيد ـ راضياً ـ لأنه رفض تدخُل أحد رجال البوليس السياسي في قضية يحققها. . الذي اختلف مع رئيسه في تكييف قضية «عيب في الذات الملكية». . كان يرى فيها أن أركان الجريمة غير متوافرة. . الذي قدّم ابن أحد الكبراء في قضية سرقة رغم أن رئيسه حذّره من ذلك. . لقد فعل ذلك كله لأنه يؤمن أنه رمز العدالة في التحقيق، لا بشخصه ولكن بصفته التي يحملها كممثل للنيابة العامة. .

ما الذي أصابه اليوم؟ لماذا رضي بوجود حرس مسلّح مع شاهد في غرفة التحقيق. . شاهد يتّهمه هو في قرارة نفسه بالقتل. .؟ لماذا قبل نصيحة كاتب التحقيق التي همس إليه بها أن يقفل المحضر ويعود أدراجه ليستكمله في النيابة بعيداً عن سطوة ذلك العملاق الأسمـــر. . .؟

إنّ وكيل النيابة ـ حيث حلّ ـ رمز لعدالة التحقيق. . ولكنه مجرد رمز، لا قيمة له إذا لم تُعِنْهُ الأجهزة على أن يكون عادلاً. . إنه يعلم تماماً أنه «رئيس الضبطية القضائية»، وأن أجهزة البوليس تتبعه، والمفروض أن تأتمر بأمره. . ولكن الواقع أن العسكري لا يطيع إلاّ رئيسه العسكري. . إنه يطيع الرتبة الأعلى. . يطيع الشريط المعلّق على الذراع، أو النجمة أو التاج التي على الكتف. فإذا لم يصل إلى طاعة هؤلاء خلال «الأكبر رتبة» فلا أمل له إلاّ أن يظلّ «رمزاً». . رمزاً لا تصل عدالته إلى الناس. .

ولكن لماذا يلوم نفسه. .!؟ إنّ حاله كحال غيره. . إنّ القاضي رمز العدالة أيضاً. . ومع ذلك، سيظلّ رمزاً إذا لم تنفذ «السلطة الإدارية» أحكامه. . ورئيس الوزراء ـ إذا كان عادلاً ـ سيظل رمزاً لعدالة الحكم. . ومع ذلك فالأجهزة هي التي توصل عدله إلى الناس. . فإذا لم تفعل بقي رئيس الوزراء رمزاً، وظلّ الناس يعانون الظلم. . .

وتنبَّه صاحبنا حين وقفت السيارة أمام النيابـة، وَفُتِحَ بـابها. . فنـزل صامتاً. . ودخل مكتبه، وقضى ساعات يصرِّف ما جدَّ في النيابة من أعمال، وفكره لا يزال مع قضية الشاكي القتيل، والعمدة الأرشد.

إنَّه مع يقينه أنَّ سيد أفندي وعم رياض يعلمان عن هذه القضية الشيء الكثير. لأنهما يعلمان عن نجع سحاب ما لا يعلم. حاول أن يدعو كاتب التحقيق للغداء معه، ولكنّ الرجل اعتذر. . وألحَّ في الاعتذار وهو يردِّد:

ـ خليها مستورة علينا وعليك. . بكره تعرف من الشيخ محمود وعبد الصمد أفندي.

صحيح . . إنه سيستمع باكر إلى أقوال الشيخ محمود الـذي شهد الحادث ورآه وكيل النيابة عند المعاينة، ومع ذلك لم يحضره ضابط النقطة للشهادة بحجة أنه «متغيِّب عن النجع». . وسيستمع إلى أقوال عبد الصمد أفندي شقيق القتيل، والذي شهد ضده في الشكوى، ولكنه سيقول الحقّ في قضية القتل. . فالأمر خرج من نزاع مادي، إلى إراقة دم أخيـــه.

* . * . * . *

[٣]

كان أول ما فاجأ صاحبنا في صباح اليوم التالي عند وصوله إلى النيابة، ملخص تقرير الطبيب الشرعي، فالقتيل مصاب بعشرة أعيرة نارية نافذة في الصدر والبطن والظهر، أُطلقت عليه من عدة جهات.. إذاً لم يكن عياراً واحداً كما قالت إشارة الحادث، ولم يكونا عيارين كما ظنّ هو من رؤيته السريعة للجثة.. لقد كان وابلاً من الرصاص أُطلق عليه نهاراً.. وليس حتماً أن يكون ذلك أمام بيته، بل ربما قُتِلَ في مكان آخر ثم أُلقي به أمام باب بيته..

ولاحظ كاتب التحقيق الحيرة في عيني وكيل النيابة، فقال لـه وقد استحال حديثه منذ وقوع الحادث همساً:

ـ معلهش يا بيـه.. الكذب كثير في الشهود..

الشيخ محمود وعبد الصمد أفندي حضروا، تحبّ تحقّق دلوقت وإلا بعد شوية؟..

ـ افتـح المحضـر وهـات الشيـخ محمـود.. أهـو ده اللي شـاف الحادث...

ودخل الرجل ذو اللحية البيضاء والجلباب الأبيض. على رأسه طاقية حولها عمامة من القماش الأبيض.. كبير السن جاوز السبعين، نحيف القامـة معتدلها.. رفع يده للتحية ولم يجلس حتى أذن له وكيل النيابة بذلك..

اسمه محمود محمد سحاب أبو زيد، وعمره سبعون سنة، مولود ومقيم بنجع سحاب.. كان يعمل إماماً لمسجد النجع حتى استغنى عنه العمدة منذ شهور - لكبر سِنّه - واستبقاه قريباً منه يشير عليه في أُمور الدين.. هكذا قال!

كان مع القتيل في منزله، وخرجا معاً، وكان هو يسبقه قليلاً ثم سمع عياراً نارياً، والتفت خلفه فوجد عبد الحميد ملقى على الأرض وقد فارق الحياة.. ولكنه لم ير الجاني، ولا يتّهم أحداً.

كم عياراً سمعت؟

ـ أظن واحد.. على كل أنا كنت مضطرب للحادث وما اقدرش أحكم.

ـ القتيل فيه عشرة أعيرة أُطلقت عليه من أكثر من اتجاه..

ـ ممكن.. اضطرابي يمنعني من الحكم.. أكذب لو قلت واحد، وأكذب لو قلت كثير.. الله أعلم.

ـ ألم تر أحداً يطلق النار؟

ـ ما خابرش.

ـ ألم يكن هناك غيرك في الطريق؟

ـ ما خابرش.

وتوالت الأسئلة.. وتوالت الاجابات «ماخابرش».. إنها تعني إنه لا يدري، أو أنه لا يريد أن يقول شيئاً..

وبدأ الحديث عمن يمكن أن يشتبه فيهم.. كان بين القتيل وغيره من خصومات، فأدخل الشيخ محمود التحقيق في متاهة تأذن لأكثر من احتمال أن يقوم: فالخصومة شيء في القلب، لا يعلمه إلّا الله، وصاحب الشأن..

وصاحب الشأن هنا القتيل، وقد مات ولم يتكلم.. والقاتل وهو مجهول.

ـ وسلوك القتيل؟

ـ من مِنّا من لم يخطىء.. سبحان المنزّه عن العيوب.

ـ ما صلته بالعمـدة؟

ـ طول عمرهم زي أخيّن وأكثر.. كان المرحوم شيخ البلد واستقال من أكام أسبوع.

ـ لماذا استقـال؟

ـ ما خابرش.

وعادت «ما خابرش» تجيب على الأسئلـة!!

لا أمل من وراء سؤال هذا الشيخ.. إنه لا يـراوغ، ولكنه يخشى «مجهولاً» لا يعلمه المحقق.. **لعلَّه يخشى ذات «المجهول» الذي قتل عبد الحميد، والذي يمكن أن يقتل غيره...**

ودخل عبد الصمد أفندي.. شقيق القتيل.. رجل يرتدي بذلة داكنة، أميل إلى النحافة، متوسط الطول، أسمر الوجه، تعلو جبهته «زبيبة صلاة» ظهـرت بسبب وضعه للطربـوش على رأسه إلى خلف قليـلاً.. هـادىء الحركة، مهذّب المظهـر.. في عينيه شيء من الاضـطراب.. وأذن له بالجلوس، فجلس...

اسمه عبد الصمد محمد سحاب أبو زيد، موظف بمديرية.. سِنّه ٥٠ سنة.. مولود بنجع سحاب، ومقيم ببندر «.....» وأقسم بالله العظيم أن يقول الحق.

ـ معلوماتـك.

ـ لا شيء.. علمت بخبـر أخي عبـد الحميـد، وطلبتني النيابـة فحضرت.. وما اعرفش حاجة، أبداً لأني مقيم خارج النجع من مدة.

ـ هل لأخيك أعـداء؟

ـ عمري ما سمعت أن له أعداء. . هو طول عمره له حسّاد لأنه كان شيخ بلد، ومحل ثقة الكبير. . أقصد العمدة.

ـ وهل قام خلاف بينه وبين العمدة؟

ـ لا . . ده مش خلاف. . دي حاجة بسيطة.

ـ هل كان سلوك أخيك سيئاً؟

ـ لا . . الله يرحمه ويحسن إليه.

ـ سبق أن شهدت في شكوى أخيك ضد العمدة بأنه مسرف وسيء السلوك.

ـ ده كلام ينقال وهو عايش. . لكن الواحد لما يموت خلاص. . اذكروا محاسن موتاكم. .

وبدأ الشاهد يدور أمام الأسئلة الموجهة إليه. . وافترض أكثر من احتمال لسبب القتل، كما فعل الشيخ محمود من قبل. . يبدو أنهما اتفقا على شهادة معينة يدليان بها. . وأشار وكيل النيابة إلى كاتب التحقيق أن يكفّ عن الكتابة، وسأل فجأة:

ـ أنت بنالك كثير يا عبد الصمد أفندي مارحتش النجع.

ـ إزاي . . أنا لازم أروح كل شهر مرة. . هو حد ينقطع عن بلده وأهله.

وأثبت الكاتب السؤال التقليدي الأخير «هل لديك معلومات أخرى». ثم أثبت الإجابة التقليدية «لا» قبل أن ينطق بها الشاهد. . وانصرف الشاهدان. . لا جديد في القضية. . وأقفل المحضر مع تكليف المركز بمواصلة البحث والتحري عن القاتل، وقيّدت الجناية ضد مجهول. . وبدأ وكيل النيابة يملي مذكرة إلى رئيس النيابة بطلب حفظ القضية مؤقتاً لعدم معرفة الفاعل.

وانصرف كاتب التحقيق من الغرفة. وطلب صاحبنا فنجان قهوة، وطلب أن يُترك وحده، وجلس يفكِّر، وهو يقلِّب أوراق التحقيق وتقرير الطبيب الشرعي ومذكرة طلب الحفظ دون أن يقرأ منها شيئاً.. إنه كان يفكر في هذا «**المجهـول**» الذي تعلَّق على كتفيه أغلب جنايات القتل والسطو.. هذا المجهول معلوم بغير شك من بعض الناس.. ولكنه سيظل مجهولاً لرجال العدالة، لأن الأوراق لا تشير إليه، والأوراق لا تقول كل شيء.. بل إنها تقول ما يريد المغرضون أن يقال.. فهي - في صمتها - تكذب في كل ما تقول..

وتواردت خواطره عن «**الفاعل المجهول**» إلى «**الجندي المجهول**».. ولم يجد بين المجهولين صلة سوى أن كليهما مجهول، ولكن أولهما مجرم يلعنه الناس، وثانيهما بطل يمجِّده الناس، يضعون أكاليل الزهور على قبره الخالي في المناسبات.. ومع ذلك فكلاهما «رمز».. **أولهما** رمز للمجرم الذي تعجز السلطة عن معرفته، لأنها لا تجدُّ في معرفته، أو لأن الناس - عن خشية أو غرض - لا يريدون أن يدلُّوا السلطة عليه.. **وثانيهما** رمز للمقاتل البطل الذي شارك في تحقيق نصر لا تريد السلطة أن يعرفه الناس، ليظلّ رمزاً.. وقد لا يكون مقاتلاً ولا بطلاً - بل قد يكون أحد الهاربين المرتدِّين الذي قُتلوا وهم يولُّون الأدبار.. ولو عُرف لزالت عنه صفة الرمز إلى البطولة في القتال..».

ولكن الدولة تستطيع أن تقلب «المجهول» في الحالين معلوماً.. لا هو حقيقة، ولكن شخصاً آخر تنسب إليه الجريمة أو البطولة.. كم من مرة استطاعت الأجهزة - أو الناس - أن يلفقوا تهمة لشخص ما، فيصبح هو المجرم المعلوم، وينال جزاءه.. هو المجرم المعلوم في عرف العدالة، وإن كان المجرم الحقيقي لا يزال مجهولاً بين آلاف الناس الذين يسيرون في الأرض. وكم مرة استطاعت الأجهزة - أو الناس - أن يلفقوا البطولة

لشخص ما، فيصبح هذا الجندي البطل المعلوم، وينال تمجيد الناس.. هو البطل المعلوم في عرف التاريخ، وإن كان البطل الحقيقي لا يزال مجهولاً بين آلاف الناس الذين يسيرون في الأرض...

وضاق صاحبنا بفكره، فطوى الأوراق وأدرج الملف درج مكتبه، وغادر غرفته قاصداً بيته، وإن كان الوقت لا يزال مبكراً..

وما أن همّ بعبور فناء المحكمة - التي فيها مقرّ النيابة - حتى لمح في طرف منه أربعة أشخاص يتحدثون معاً، وقد بدا الاهتمام على حركاتهم ووجوههم؛ إنهم سيد أفندي الكاتب، والشيخ رياض السائق، والشيخ محمود إمام المسجد السابق، وعبد الصمد أفندي الموظف بالمديرية.. أبناء النجع الأربعة.. تُرى فيمَ يتحدّثون!؟.

وعاد إلى غرفته مسرعاً، وطلب من الحاجب أن يستدعي كاتب التحقيق.. إنه مع يقينه أنّ أحداً منهم لم يره.. فماذا يقول لكاتب التحقيق؟ أيسأله مباشرة فيم كان حديثه مع رفاقه؟ لا.. فإنه سيتوجس خيفة، وسيخفي الأمر عنه.. أيسأله أين كنت؟ لا.. لأنه سيرتاب في السؤال، ويغلب على ظنه أنّ وكيل النيابة رآه حيث كان.. فلن يحصل منه على شيء.. على الشيء الذي يريده.

ودخل سيد أفندي كما اعتاد أن يدخل، نحيفاً طويلاً في ظهره انحناءة بسيطة، يحمل في يده أوراقاً، ويرفع يمناه بتحية مهذّبة، ثم يدخلها في جيبه ليخرج قلمه، ويتردد لحظة قبل أن يجلس في مواجهة وكيل النيابة.

ـ خذ ملف القضية إلى الرئاسة بمجرد وصول تقرير الصفة التشريحية.

قالها صاحبنا وهو يناوله ملف تحقيق مقتل عبد الحميد سحاب.. ثم أضاف - دون أن ينظر إلى الكاتب - :

ـ ووصّي الشيخ رياض يستعدّ بكره الصبح لأني رايح النيابة الكلية وأنت رايح معايا يا سيد أفندي.

ـ حاضر يا افندم.

ـ وإذا كان عبد الصمد أفندي سحاب لسّه ما روّحش، بقدر يسافر معانا.. أهو يوفّر تذكرة القطار...

ـ إذا ربّنا أراد يا افندم..

قالها بصوت غريب، فرفع وكيل النيابة عينيه إليه، فوجد وجهه الأسمر قد علته صفرة، وعينيه زادت عن ذي قبل اضطراباً. وقرأ في هاتين العينين المضطربتين عشرات التساؤلات والتشككات. فانصرف مسرعاً وهو يقول:

ـ أنا مروّح يا سيد أفندي.. بعت لي الايراد على البيت.. وموعدنا مع الشيخ رياض بكرة الساعة ثمانية.

وغادر النيابة مسرعاً، وكأنه يريد أن يفرّ من عدوى الاضطراب التي أصابت الكاتب.

* * * *

وفي الثامنة صباحاً، كانت السيارة بالباب، وكان يقودها الشيخ رياض، ويجلس بجواره سيد أفندي.. ولم يكن لعبد الصمد أفندي أثر.. ولم يحاول صاحبنا أن يسأل عنه.. ولكن الكاتب المهذب لم يرد أن يترك التساؤل قائماً في ذهن رئيسه.. فقال دون مقدمات:

ـ عبد الصمد أفندي كان ناوي يروح معانا.. لكنه راح النجع يحضر عزاء أخوه..

ـ وهم بياخذوا العزاء قبل التأر؟

سأله صاحبنا ببساطة، فسمع الردّ من الشيخ رياض:

ـ الحالات دي مافيش تأر إن شاء الله.. دمّه عند ربّنا..

ويتنهّد السائق آسفاً على ما قال.. وساد الصمت..

يريد صاحبنا أن يعلم شيئاً وراء تلك الأوراق الصّمّاء الكاذبة.. ووراء تلك التقارير الملفقة.. شيئاً عن ذلك الشيخ الهادىء في مظهره.. الذي يبدو نائماً أو ميتاً.. ولا شك أنه يعلم.. ولكن كيف يعلم.. والعلم في قلب هذين الرجلين اللذين لا يتحدّثان إلّا رمزاً..

الرجلان ولدا في النجع منذ قرابة الخمسين عاماً.. شهدا الحرب العالمية الأولى، وسمعا عن أنباء السلطة.. وغادرا النجع ليعملا في الخارج.. واختارا مهنتين مختلفتين في بلد واحد.. ومع ذلك ظلّ كل منهما لصيقاً بالنجع وأحداثه وأنباء أبنائه.. إنهما يذكران كلّ شيء منذ تولّى الشيخ عليش منصب العمدة من عشرين عاماً أو أقلّ قليلاً.. يذكران سلفه الشيخ محجوب.. ويعلمان الكثير عن عبد الحميد وعبد الصمد والشيخ محمود والشيخ حسن.. وعن شيخ الخفراء.. ووكيله.. والخفراء.. يعلمان كيف لا تتدخل الدولة في شئون هذا النجع لأنه محكوم «بالأرشد» والقبيلة.. وللأرشدية حقوقها.. تنالها قبل أن تؤدي واجباتها...

..*.*

[٤]

يعلم الله وحده منذ متى يقيم هذا النجع تحت أقدام الجبل الشرقي الكالح اللون، ترقى بعض بيوته السفح، ويزحف البعض الآخر نحو النيل في الأرض الزراعية.. ولكن البعض يروي عن تاريخ النجع الكثير.. مما يرجع إلى قرون وقرون...

كان «نجع سحاب» معروفاً من قبل باسم «نجع أبي زيد».. وكان المنشدون على الربابة يتلون قِصَّته القديمة: وكيف أنه كان مستقراً «لأبي زيد الهلالي» في حروبه بمصر قبل أن يتجه إلى المغرب.. إلى تونس الخضراء.. وأبناء النجع هم من بني زيد، نسباً أو انتساباً.. يفخرون به، ويعتزُّون بما كان عليه من ذكاء وبأس وصفاء نفس..

والواقع أنَّ النجع لم يقتصر على ذرية أبي زيد الهلالي - كما يؤكِّد الناس والمنشدون - فقد جدَّ عليه قوم عاشوا فيه قهراً عن أبنائه تارةً، وحلّوا ضيفاً عليهم تارة أُخرى.. وما أن انقضى جيل وجيل، حتى أصبح أبناء القادمين قهراً والوافدين ضيفاً من أبناء النجع.. شربوا ماءه وأكلوا طعامه، ووافقهم أُسلوب أبنائه في الحياة، فتطبعوا بطباعهم.. وصار أبو زيد جدّهم الأعلى جميعاً.. سمُّوا أبناءهم باسمه، فصار كل من في النجع يحمل اسمه لفظة «أبي زيد» لقباً حتى أن «الخواجه صادق حنين» ابن «الخواجه حنين اخنوخ».. تلك العائلة النصرانية التي استقرت في النجع منذ زمن طويل..

أصبح الفرد منها يحمل لقب أبي زيد.. فالنخواجه صادق أصبح اسمه «صادق حنين اخنـي أبي زيد» وليس هذا بمستغرب، فالنسبة إلى «أبي زيد» أصبحت أقرب ما تكون إلى «جنسية» يحملها أبناء النجع أيًّا كان جنسهم أو لونهم أو دينهم، أو نسبهم.. ذلك النسب الذي أنستهم إياه الأيام بعد أن انتسبوا جميعاً إلى أبي زيد الهلالي.. واعتزّوا بهذا الانتساب، فصار النجع لهم وطناً، قد ينزحون عنه لدواعي العلم أو الرزق، ثم إليه يعودون.. ويعتزُّون به، ويشعرون بأحداثه وأحوال أهله اينما كانوا..

وكان أهل النجع جميعاً ـ المقيم منهم والمغترب ـ يشتركون في دماثة الخلق وهدوء الطبع وحبّ الخير للناس.. وكانوا يتقنون عملهم أينما وجدوا ـ في نجعهم أو خارجه ـ فكان فلاّحهم خير فلاّح، وصانعهم خير صانع، وتاجرهم خير تاجر.. فعاون إتقانهم عملهم دماثة خلقهم على استقرار حياتهم وازدهار نجعهم. وكانت «الكفور»(١)، المجاورة طالما تحتاج منهم إلى عدد تحسُن به حال أهلها، فكانوا لا يبخلون بمالهم وخبرتهم على جيرانهم.. «فالرسول قد أوصى على سابع جار».

وكانت تسيطر على النجع من قديم فكرة «الأرشدية» التي لا يستطيع أحد أن يحدِّد مصدرها، هل هي من آثار الفراعين حين كان الملوك أبناء الآلهة..؟ هل هي من آثار المسيحية التي تحيل القدّيس أباً لرعيته في الدِّين فهم يتركون أُمورهم بين يديه؟ هل هي من آثار الإسلام الذي يأمر أن يوقِّر الصغير الكبير ويجعل المسؤولية لأبيه؟ أم تُراها من آثار القبلية البدوية التي يملك فيها «الشيخ الكبير» أمر القبيلة دون شريك. فإن استشار غيره ـ وقلَّما يفعل ـ فهو بالمشورة غير ملزم؟

---

(١) الكفـر : اسم من أسماء القرى.

وأياً كان الأصل التاريخي لهذه «الأرشدية» التي تسيطر على مجتمع النجع، فإنها كانت نافذة منذ قديم في حدود الأسرة، فكان ربُّ الأسرة أرشدها وكبيرها، أمره مطاع، وكلمته مسموعة، يتصرف في شؤونها كما يرى، يملك مالها وحده، يوزعه على من يشاء من الأسرة كما يشاء.. يملك وحده الولاية على نفوس أبنائها ـ ذكوراً وإناثاً ـ يزوِّج ويطلِّق، ويقرُّ بنسب وينكر نسباً، لا اعتراض لأمر على ما يفعل، وإلاّ تبرّأ منه الأرشد فخرج من عداد الأسرة أو فقد ماله وشخصيته.. ولم لا.. والأرشد أعلم من غيره بالخير أين هو وكيف يكون.

كان أرشد الأسرة كبيرها ورئيسها وممثلها، وكان في النجع أكثر من أُسرة فكان فيها أكثر من «رشيد».. ويحدث أحياناً أن يرتضي الراشدون في النجع من بينهم ارشداً لهم، يصرُف أُمورهم العامة دون أن يطغى عليهم في شئون أُسرتهم الخاصة، وأرشد النجع هو كبيره. يسنده الراشدون ويستندون إليه.. فهو أرشد آل أبي زيد جميعاً.

وكانت الحكومة تسمي أرشد النجع عاملاً أو والياً أو ملتزماً او أميراً او عمدة.. وهو في كل حال لا يستمدّ سلطانه من الحكومة إلاّ أن يكون ضعيفاً.. وفي غير ذلك. فسلطانه من اختيار الراشدين له وسيطرته عليهم وعلى أبناء النجع من خلالهم.. فإن أمسك بزمام سلطانه هذا كان بحقٍّ كبير النجع وأرشده.. وإن لم يفعل فهو لا وزن له في النجع وإن عيَّنته الحكومة وساندته، لأنَّ أحداً من الناس لن يطيعه.

وكان المنشدون يردِّدون أنَّ الراشدين اختاروا يوماً ما «الشيخ محمد الدخاخني أبو زيد» كبيراً للنجع.. وإن كان يصله بأبي زيد الهلالي نسب.. ولكنه وفد على النجع فيمن وفد، وصارت له مكانة في أُسرته، وكان له بأس على الراشدين، فأمِنَ إليه الراشدون واختاروه أرشدهم..

فعينته الحكومة ملتزماً يجبي «المال» ليردّه إليها. . وهي لا تحاسبه على ما يجبي ولكن على ما يصل إلى خزينتها، ويبدو أنَّ الشيخ الدخاخين كان حصيفاً، فسجّل أراضي النجع كلها باسمه، وأعاد توزيعها ـ للزراعة لا ملكية ـ على من والاه من أبناء النجع. . يفلحها، ويورِّد إلى الكبير كلّ محصولها. . فيعطيه الكبير بعضه؛ يزيد هذا البعض أو ينقص حسب مقاييس في ذهن كبير النجع وحده، هي خليط من الترغيب والترهيب، ومن إظهار الرضى أو السخط. . وتوالت الأيام، واستقرت أرشدية الكفر في أُسرة الشيخ محمد الدخاخني. . وصار الملتزم «عمدة» حين نشأ هذا النظام، ولكنه ظلّ ـ أولاً وقبل كل شيء ـ الكبير الأرشد في النجع كله.

ولم يكن المنشدون لينسوا أرشدية «سبع الليل» أحد أحفاد الشيخ محمد الدخاخني، الذي كان عمدة متمديناً، عُرِفَ عنه التبذير الكثير. . وزار النجع على عهده المدير والمأمور والكثير من الضباط. . وكانت معهم زوجاتهم. . فرأى رجال النجع ونساؤه لأول مرّة النحر المكشوف والقلائد المتلألئة والقرط المتدلي، وبنى «سبع الليل» بعض منازل النجع بالطوب الأحمر ـ كبيوت البندر. . وسوّر الجرن الذي كان يستعمل في أكثر أيام الحصاد مكاناً للسمر، ينشغل فيه الناس عن همومهم فيغنون ويرقصون ويستمعون إلى المنشدين على الربابة حتى الصباح. . كان حلماً عاش فيه سبع الليل داخل النجع حيناً حتى أفاقوا منه على ديون تراكمت على النجع، فرهنت بعض أرضه لدين قيل إنه سبعة آلاف جنيه. . وليس هذا بالمبلغ اليسير. ولمّا أفاقوا لم يكن هناك حلّ غير أن يترك سبع الليل أرشديته، ويهجر النجع ليعيش في البندر وحيداً. . وأن يختار الراشدون خلفاً له ابناً ضعيفاً. . فَرَضَ سيطرته على أبناء النجع بسلطان «نقطة البوليس» ومن ورائها سلطان المركز. . ومضت الأيام، والنجع يدفع من قوته ديون أرشد سابق، مع فوائدها المتراكمة. . ومع ذلك ظلّ أبناؤه يعتزون في

قرارة أنفسهم بجمال النجع، والمباني التي جدّت فيه، والجرن المسوَّر الذي يقضون فيه ليالي سمرهم. . لم يكن ينغص عليهم حياتهم إلاّ رجال الحكومة يظهرون فيه بالليل والنهار، لحماية حقوق الدائنين. . فإذا جنّ الليل ولم يبق غير المخلصين، انطلق صوت المنشد يبكي الشيخ «أحمد العربي» أحد أبناء النجع الذي حاول يوماً التخلُّص من رجال الحكومة، ومن ذلك الكبير المستند إلى سلطانهم. . ولكن الحظّ خانه. . فلم يستطع أن يفعل شيئاً، وقضى بقية عمره شريداً. .

ومرّت الأيام حتى عُيِّن «الشيخ محجوب» عمدة للنجع. فاختاره النجع ارشداً له. . وما كان رشيداً، ولكنه كان أوّل عهده شاباً محبوباً، واستطاعت بطانته أن تفسده، وأن تجعل منه «أرشداً» قاسياً، لا يعبأ بغير مصالحه الخاصة، ونَهَمٌ أُصيب به نحو جمع المال. . وزاد في فساده نفاق بعض الأسر الغنية في القرية، ليكون راشدها شيخاً للبلد. . ولشيخ البلد وأُسرته مزايا لا يستهان بها، وكان يسنده في مركزه بجوار تطاحن الأسر الغنية في تقربها إليه خدّامه الخصوصيون الذين كان يستطيع بهم أن يرهب أي فرد في النجع يرفع صوته مطالباً بحقّه أو معترضاً على أمر. . وضاق أهل النجع به ذرعاً، وتمنُّوا أن يترك المركز كما فعل جدّ له من قبل. . ولكن ليس إلى ذلك سبيل. . إلاَّ أن ينفضّ خفراؤه من حوله أو ينقلبوا عليه، وأن تقبل الحكومة بتنحيه. . وتعيِّن غيره، إذ هي التي عيّنته وأباه من قبله في منصب العمدة. . .

* . * . * . *

وكان صباح - منذ خمسة عشر عاماً - حين سمع الناس مؤذّناً غير المؤذّن، وشهدوا على المنبر إماماً غير إمام مسجدهم، ورأوا في منزل العمدة القائم على السفح كبيراً غير الشيخ محجوب. . رأوا كبيراً يؤازره

صفوة الراشدين، وترضى عنه الحكومة التي سرعان ما عيَّنته عمدة.. وإذا بالنجع يتولى أموره «الشيخ عليش سحاب» الذي غيَّر بعد سنوات اسم النجع، فإذا باسمه «نجع سحاب» فتغيرت ألقاب من فيه، فصاروا جميعاً ينتمون إلى «الشيخ سحاب» الذي بدأ المنشدون يذكرون آثاره وكيف أنه حلَّ النجع وأنشاه قبل أبي زيد الهلالي، ويؤكدون أنَّ كل ما كان ينسب إلى الهلالي إنما فعله هو.. ولكن المنشدين كانوا من قبل مخطئين.. واختفى الشيخ محجوب من النجع ليعيش في البندر كما فعل جدُّه قديماً.. ومات بعد ذلك غمّاً.. أو مات قتيلاً.. قتلته امرأة غرَّر بها أو قتله أحد الخفراء.. لا يدري أحد ما حدث، فكل هذا يقال همساً بين الناس الذين بدأ النسيان يدبُّ إلى ذاكرتهم فيرون ذكرياتهم بعين واقعهم الذي تغيَّرت فيه الأحداث والمعايير.

لقد نسي الناس الكثير، ولكنهم يذكرون تماماً ـ مهما قال المنشدون ـ أن الشيخ عليش لم يكن وحده في ذلك الصباح الذي أُزيح فيه عن النجع الشيخ محجوب الدخاخني.. كان معه كثيرون؛ كان معه خفراء خصوصيون اتفَق معهم على الإطاحة بشيخ النجع وأعوانه.. وكان معه خفراء نظاميون رأوا الخير في الخلاص من الشيخ محجوب.. وكان معه راشدون للأسر في النجع ساندوا الخفراء وأعانوهم.. وكان معه الشيوخ الذين تتكوَّن منهم مجالس العرب التي تقضي بين الناس.. وكان معه إمام المسجد وأخوه وأبناؤهم.. ومع الأيام تساقط هؤلاء جميعاً، مات منهم من مات، ولزم بيته من لزم، وهاجر عن النجع من هاجر.. وآخرون يسري همس في شأنهم إذا ذكر الناس تلك الحظيرة المهجورة القائمة خلف بيت الشيخ عليش، يدخلها قوم ويخرج منها قوم، بأمر الكبير أو تلك المجالس.. التي شكَّلها من بعض الخفراء للقضاء في قضايا الناس بدلاً من مجالس العرب التي كانت وحدها صاحبة السلطة في القضاء منذ عرف النجع قضـــاء...

لقد نسي الناس الكثير، ولكنهم يذكرون تماماً - مهما قال المنشدون - أن الشيخ عليش وأعوانه قد وعدوهم بزوال الأرشدية الأسرية، وأرشدية النجع تبعاً لذلك؛ فأبناء النجع كلهم سواء، لا سلطان لكبير على صغير، ولا لغني على فقير.. ومع الأيام زالت سيطرة الأرشدية الأسرية، وحلّت محلّها أرشدية «الأعوان».. اما أرشدية كبير النجع فقد تركّزت، واتّخذت صورة أُخرى أكثر وضوحاً، ويظنُّ الذاكرون أنها أكثر شدة بكثير مما سبقها من أرشدية ضاقوا بها وتمنّوا زوالها.. ولكنهم اليوم لا يملكون من أمرهم شيئاً، حتى مجرّد التمني..

لقد نسي الناس الكثير، ولكنهم يذكرون تماماً أن الشيخ عليش وأعوانه قد وعدوهم بمزيد من الرخاء، ومكانة بين الكفور والقرى المجاورة.. ولكن الأيام مرّت، فإذا الضيق يشتد بهم، ويتزايد عدد الساعين إلى الرزق خارج النجع.. ولكنه رزق مشوب بمذلّة الانتماء إلى «النجع» الذي يلفظ أبناءه، بعد أن كانوا من قبل يحلّون بكل تكريم وتقدير حيثما عملوا، لأنهم أبناء النجع العريق، الذي لا يتركه أبناؤه إلّا لخدمة يقررونها للبلاد المجاورة...

ومهما نسي الناس، فإن البعض لا يزال يذكر الكثير؛ فالشيخ عليش والشيخ محمود والشيخ حسن وعبد الحميد أفندي وعبد الصمد أفندي.. وغيرهم.. يذكرون كل شيء.. ويذكرون كيف انتقل النجع من حال إلى حال.. من نجع أبي زيد إلى نجع سحاب.. يبكون الحال الجديد، ولا يتمنّون عودة الحال القديم...

.. — .. — .. —

[٥]

كان المنزل المتواضع في وسط القرية، الذي يسكنه الشيخ حسن، مكتظاً بالناس يشغلون الحوش والمندرة(*) وجانباً من الطريق.. وأُغلقت غرف النساء دونهن حتى لا يفتحها أحد من الضيوف.. وكان الوقت مساءً، والرجل القصير الهادىء الوجه العميق النظرة يجلس على كرسي بجانب من المندرة، ويقوم أحياناً من مكانه ليرحب بضيفه الذين تكاثروا على البيت كما لم يفعلوا من قبل.. وكانوا ـ من أيام قلائل ـ يخشون مجرد المرور أمامه، لا الوصول إليه والجلوس فيه والترحيب بصاحبه.

كان الشيخ حسن قد عاد من المسجد بعد أداء صلاة المغرب، أمّ بها الناس فصلّاها حقيقة كالعهد به، ثم صلّى ركعتي السُّنّة، وخرج من المسجد ـ في جمع من المصلين ـ إلى منزله، فدخل إلى أهله، فسلّم عليهم سلاماً سريعاً بعد غيبة ثلاثة أسابيع، وخرج إلى المندرة ليلقى ضيفه، أولئك الذين جاؤوا معه من المسجد، وآخرين جاؤوا بعده من بيوتهم أو حقولهم ليسلموا على الشيخ، ويقولون له «حمداً لله على السلامة».

* * * *

(*) المندرة : قاعة كبيرة يستقبل فيها أعيان الأرياف ضيوفهم، ويشبه ما يسمّى في بعض البلاد العربية بالديوانيــة.

منذ ثلاثة أسابيع اختفى الشيخ حسن من بيته حين حضر إليه بعض الخفراء قبل الفجر ليصحبوه إلى حيث لا يدري أحد.. واختفى معه في ذلك الوقت بنوه وأقاربه.. ولم تبق في بيوت هذه الأسر، غير النساء والأطفال وقلة من رجال راحوا يسعون لدى كبير النجع ليطلق سراح الشيخ حسن ويعيده إلى بيته.. وكبير النجع يراوغهم ويشترط عليهم، ويروي عليهم وعلى الناس قصصاً حول خيانة الشيخ حسن للنجع، وكيف أنه يتصل بإخوة الخواجه غبور في البندر ليرهن لهم بعض أرض العائلة، التي هي أرض النجع وأبنائه جميعاً، وأنه يحاول مع أفراد أُسرته أن يسيطروا على النجع ويحكموه بطريقتهم التي هي طريقة محجوب أفندي ـ العمدة السابق ـ بل أسوأ منها بكثير.. ويقسم كبير النجع أنه صادق فيما يقول، وأنه لا يلقي الاتهام جُزافاً، ولكن عنده على ما يقول ألف دليل ودليل.. والناس يستمعون إليه، ويؤمِّن على قوله المصدق والمكذِّب على السواء، ويقول بعضهم في استعطاف «معك حق، لكن السماح يا شيخ عليش.. وأنت برضك من أهل السماح.. وينطلق صوت من الجالسين يقول: «ادبحه يا عمدة، وريِّح البلد منه ومن عائلته..!» ويفاجأ الجالسون بهذا التحريض، ولكن الشيخ عليش يبتسم ابتسامته العريضة وهو يقول: «لا.. كل واحد يأخذ جزاؤه بالأصول.. هو أنا قاتل زي محجوب وأبوه...» ويتظاهر البعض بالرضا، ويتظاهر البعض بالسخط، وكلاهما إنما يسترضي بموقفه العمدة الجديد، الذي لا يعلم أحد بعد شيئاً عن نيَّاته ورغباته..

وتنتقل هذه الأحاديث إلى الشيخ حسن في «المنضح» وهو الاسم الذي يطلقه أبناء النجع على الزريبة التي تقع خلف بيت العمدة ليحبس فيها من يرى العمدة أو الخفراء حبسه.. تنقل هذه الأحاديث إلى الشيخ، فيشيح بوجهه الهادىء عنها، ولا يعيرها التفاتاً.. ويردد «ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

كان الشيخ حسن لا يثق في العمدة الجديد. . كان يراه كاذباً في كل ما قال وما يقول، كان يراه حقوداً سيحطم النجع ومن فيه. . يستعين ببعض أهله على بعض. . إن الشيخ حسن قابل أحد إخوة الخواجه غبور، بعلم من العمدة وبل بناءً على طلبه. . قابله ليتفاهم معه على شروط إلغاء رهينة قديمة على بعض أراضي النجع، وعلى تخفيض الفايظ الذي كان يتقاضاه. . والشيخ حسن نصح العمدة كثيراً أن لا يتسرَّع في إلغاء الأرشدية في العائلات، وأن يجعلها أرشدية معقولة تنبعث من مصلحة النجع وأبنائه، وأن يلغي أرشدية كبير النجع، وأن يستشير الناس فيما يقدم عليه من أعمال، وأن يعيد لمجالس العرب سلطانها، فهي وحدها التي تملك القضاء بين الناس وفقاً لعاداتهم وتقاليدهم القديمة. . وأخيراً أن يخفف من سلطان الخفراء ـ النظاميين والخصوصيين ـ على الناس، لأنهم يحمّلونهم من أُمورهم ما لا يطيقون.

لقد نصح الشيخ حسن العمدة بهذا كله، وتحدّث إليه معه طويلاً، ولكن العمدة كان يُظهر الاستجابة ويخفي غيرها. . وأخيراً فها هو الناصح المخلص يجلس على الأرض في المنضح المظلم وحوله عشرات من أبناء عائلته. . والشيخ عليش يجلس في مضيفته التي ورثها عن «محجوب افندي» يلقي الاتهام ويتظاهر بقبول الشفاعة، ويدَّعي التمنع عن الظلم. . .

وكان يأتي إلى المنضح في الليل بعض الخفراء ـ سرّاً كما يقولون ـ ويطلبون مقابلة الشيخ أو أحد أبنائه وأقاربه. . وكان الشيخ يرفض أن يلقى أحداً سراً حتى في مجلسه، فهو لا يصدِّق عليش وخفراءه وإن ادّعوا أنهم انقلبوا عليه. . وإذا أحالهم على بعض عائلته الذين معه في المنضح أوصى بعدم الثقة فيما سيقولون. . وعدم الخوض في اضطراب كان يعلم هو أنه قائم بين صفوف الخفراء والشيخ عليش وأعوانه. . ويصدق حدس الشيخ ـ

أو علمه ـ فلا يتحدث الخفراء إلاّ في أنّ الشيخ عليش قد بدأ يطغى، وأنه يحاول إقصاء الشيخ محمد، الرجل الطيب الذي اتخذه أهل النجع رمزاً لإخراج محجوب أفندي من البلد..

وبدأ الخلاف ـ أو الاضطراب ـ الذي ظنه الشيخ أو عَلِمَهُ يثور، وتطاحن الخفراء، منهم من يناصر الشيخ عليش، ومنهم من يناصر الشيخ محمد. ووقف الناس حيارى بين الفريقين؛ إنهم يحبُّون الشيخ محمد، ويخافون الشيخ عليش، ولا يدرون ما يفعلون..

ومرّت الأحداث سريعة، وجاء إلى المنضح أحد الخفراء ومعه «مدرس بالمدرسة» من أعوان الشيخ عليش، جاءا يعرضان على الشيخ حسن أن يخرج وأهله إلى بيوتهم، وأن يعذروا الشيخ عليش في موقفه منهم، فقد كان الشيخ مدفوعاً من بعض رفاقه الذين غرروا به.. ويؤكدان أن عليش سينفذ ما نصحه الشيخ حسن من نصائح، وسيذهب الليلة ـ بعد صلاة المغرب ـ ليعتذر للشيخ حسن في منزله..

وفهم الشيخ حسن أن البلد في غليان، وأن أبناءها كان بعضهم يرفع السلاح على بعض وما فعلوا ذلك من قبل أبداً. فَقَبِلَ العرض، وإذا أبواب المنضح تفتح، ويخرج وأهله قبل الغروب. فيمرون بمسجد البلد يصلُّون المغرب، ويعود الشيخ إلى بيته ومن معه، ويتزاحم الضيوف من أبناء البلد؛

بعضهم ليقول له: «حمداً لله على السلامة» وبعضهم تحدوه الرغبة في أن يشهد اعتذار الشيخ عليش للشيخ حسن.. وبعضهم جاء على الزحام، ولا يكاد يدري من حقيقة الأمر شيئاً.. وعلى كل، فكل قادم يشدُّ على يد الشيخ، ويردد العبارة التي طالما ترددت تلك الليلة «حمداً لله على السلامة لك عند ربنا يا شيخ» فيرد الشيخ الهادىء الباسم «أسأل الله أن يكتب لنا بها حسنة!».

ويدخل المندرة الشيخ عليش، بطوله الفارع ووجهه الأسمر، وأنفه الطويل.. يحيط به جمّ من أعوانه من الخفراء وأبناء النجع، فيسلِّم على الشيخ حسن في احترام، مردِّداً نفس العبارة «حمداً لله على السلامة».. ثم يضيف متمتماً.. «اعذرني يا شيخ، ما كانت من قصدي.. كل شيء في البلد حا يكون حسب رأيك إن شاء الله...».

ويجري حديث هادىء بين الشيخ حسن والشيخ عليش، يقسم الأخير فيه أنه ما قصد سوءاً بما فعل، ويتعهد أنه سيشكل مجلساً من ثلاثة من عائلة الشيخ حسن وثلاثة من أعوانه، يتفقان على خطوات ضمان الأمن والرخاء للنجع وأبنائه.. وأن لا يفعل شيئاً إلّا بمشورة الناس.. ويؤكد - مقسماً كعادته - أن الشيخ محمد يريد أن يستبدّ بالنجع، ويعيد إليه حكم محجوب أفندي.. وأن زميله خالد يعمل سمساراً للخواجه صوصة المرابي في البندر، وزميله صالح وأخوه يعملان في السمسرة أيضاً لحساب غبور وإخوانه.. وأنه لا يريد أن يسلِّم زمام البلد لسماسرة المرابين، إنه يريد أن يكون نجع أبي زيد لأبنائه، يصرِّفون شئونه ويتمتعون بخيراته. وأخيراً يطلب عليش من الشيخ حسن أن يعطيه فرصة ثلاثة أيام ليصلح كل شيء، ولنبدأ المجلس بنقاشه.. وبعد ثلاثة أيام يلزم بها الشيخ حسن منزله والمسجد، ويفعل أبناؤه وأقاربه وأعوانه فعله.. ويسبق الحياء، فيعطي الشيخ حسن الوعد..

* . * . * . *

وفي ثلاثة أيام يتغيّر كل شيء في النجع...

خفراء يُفصلون ويُلقى بهم في ظلمات المنضح، ولصوص يعينون خفراء ويحملون سلاحاً يحمون به أمن البلد، فلاحون يتركون حقولهم

ويتحلقون حول منزل عليش أفندي يطالبونه بأن ينقذهم من إخوانهم ملاك الأراضي. . مدرسة النجع يتمنع فيها التلاميذ الصغار عن تلقي الدروس، والمدرسون عن إلقائها، ويخرج الجميع، حشود إلى الطرق، سرعان ما تتفرّق ليذهب كلٌ إلى حال سبيله. . عمال المناسج البدوية التي تدرُّ على النجع إيراداً يمتنعون عن العمل. . الأسواق تقفل أبوابها، والحوانيت لا تبيع. . حتى أشيع أنَّ المصلّين امتنعوا عن الصلاة في المسجد. . ولم يبق مفتوحاً إلاّ مقهى النجع، تدار فيه أكواب الشاي، وفناجيل القهوة، وكراسي الجوزة بحشيش أو بغير حشيش. .

ويهرع الفضلاء إلى عليش أفندي يطلبون منه أن يتدخل، فهزّ كتفيه قائلاً: «ما ليش صالح. . اللي عاوزه أولاد النجع يمشي. . !».

ويهرع الفضلاء إلى بيت الشيخ حسن يطلبون منه أن يتدخل، فيقول ـ والأسى يقطع قلبه «عطيت كلمة، لمُـا تفوت الثلاث أيام أكلِّم عليش. . . !».

وحين يلتقي الرجلان في المجلس المقترح بعد ثلاثة أيام، يعلم الشيخ حسن أنَّ الأمر خرج من يده، بل خرج من أيدي الفضلاء جميعاً. . وأن عليش قد خدعه مرّة أُخرى. . فاضطراب الحال في النجع يوجب الحزم، والحزم يملكه عليش وخفراؤه الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة مع الصديق والعدوّ على السواء.

وبالحزم ينهي عليش أفندي الموقف، متناسياً وعوده للشيخ حسن، متناسياً صداقاته السابقة ببعض أعوانه، ومتناسياً حبّ الناس للشيخ محمد. ولا يمض طويل وقت حتى يكون قد سوّى أُموره مع النقطة والمركز، واتفق على «السلفة» مع الخواجه غبور وإخوانه. . وأزاح الشيخ محمد ومن

ناصره، وتناسى الشيخ حسن ونصائحه، وسابق احتياجه إليه.. ويصدر قرار بتعيين عليش أفندي عمدة للنجع، ويجتمع الراشدون ـ ولا يدري أحد أن راشدين اجتمعوا ـ ليختاروا أرشداً للنجع وكبيراً له، فيحمل لقب «الشيخ عليش»، ولا يناديه الناس بعد ذلك إلا بقولهم «بالكبيــر».

وفي أُمسية من أُمسيات الصيف تنطلق رصاصة بجوار برج حمام الشيخ عليش وهو جالس في مندرته، فتقوم قائمة الخفراء، ويحرقون منزل الشيخ حسن، ويقبضون على عشرات من أهله وأقاربه، ويعقد مجالس الخفراء لتقضي في شأنهم بدلاً من مجالس العرب. فيقتل الخفراء ستة منهم، ويزجّ بالباقين في المنضح.. إلى متى؟ لا يعلم ذلك إلّا الله وحده..

وينسى أكثر الناس ما حدث. ويسعون إلى استرضاء الكبير.. وتمتلىء المقهى بالثرثارين المترددين، لاعبي النرد شاربي الحشيش.. والخفراء يفرضون على الناس الأتاوات باسم الكبير ويجبونها لحسابهم وحسابه..

— . . . — . . . . —

[٦]

دخل الشيخ سليمان مقهى النجع، مطرقاً ساهماً كمن يحمل هموم الدنيا كلها فوق رأسه.. واتجه - دون أن يلقي تحية على الجالسين - إلى الركن النائي في المقهى الذي هو دكان النجع في ذات الوقت.. فسلَّم على من يجلسون على «الدكة» الخشبية، فردُّوا التحية في شبه همس، وأفسحوا له مكاناً بينهم فجلس.. وجيء له بالشاي.. وبدا عليش شارد الذهن مشغول البال.. وطال الصمت.. حتى قطعه الشيخ عبد الرزاق متسائلاً:

ـ عملت إيه مع الشيخ مصطفى يا سليمان؟

ـ رفض مقابلتي وبعث ابنه يقول لي اللي خربوها يبنوها..

فتدخل الشيخ محمود قائلاً:

ـ ربنا يعمل اللي فيه الخير..

وأطرق الثلاثة.. كلٌ منهم يفكِّر في ذات الأمر، ولكن من ناحيته هو.. وإن التقت الأفكار عند حال النجع وأبنائه وجيرانه.. وعن تلك العصابات من قطاع الطرق الذين يسدُّون المنافذ إلى النجع، يمنعون الناس من الخروج منه أو الدخول إليه.. ويهددون أمنهم ليلاً ونهاراً، ولا يستطيع خفراء النجع ردَّهم..

حول هذا الجمع الصغير الصامت في ركن المقهى، كان كثير من أبناء النجع يجلسون.. يثرثرون ويتندرون، أو يتحاسبون أو يقتلون الوقت بلعب الورق أو النرد.. كان الكل في شغل عن هذا الجمع الصغير الذي يحمل هموم الدنيا. إن حمل الهموم لن يخفف من وطأتها شيئاً، ولكن قليلاً من الحشيش في الجوزة يفعل فعل السحر في التسرية عن النفوس.. إن واحداً من هؤلاء - الخالين والمهمومين - لم يخرب البلد، فلماذا يحملون همّها.. إنّ البلد بلدهم ولكنهم بعيدون عن التصرّف في شئونها، ويكفي أن يقول الكبير الأمر، فينصلح الحال أو تزيد البلد خراباً.. فالأمر لن يتغيّر إذا حملوا همّاً..

ويخطىء من يحسب أن كلّ أهل النجع قد تبلّد حسّهم.. وأنّه ما بقي منهم من يشعر بخطر الأمور غير هؤلاء الشيوخ الذين تحلّقوا في أحد أركان المقهى، أو الذين لزموا بيوتهم لا يبرحونها إلّا لضرورة. كلّ ما في الأمر أن الشيوخ يعبُرون عن إحساسهم بأسلوبهم في المناقشة والسعي، والآخرون يعبّرون عن إحساسهم بالمساهمة في دفع الخطر إذا دُعُوا إلى ذلك، وبالفكاهة اللاذعة إذا أصرّ الكبير أن يكون هو المتصرّف وحده في أُمور النجع.. وهناك بجوار الشيوخ ومرتادي المقهى ذلك الجمع الغفير من الذين يعملون في الزراعة وتربية المواشي والصناعة والتجارة، وكل هؤلاء ارتبطوا بالنجع ارتباطاً وثيقاً، يشغل حاله بالهم، ولكن مشقّة الحياة والحيرة أمام الأحداث تشغل بالهم أكثر، فتصرفهم - في الظاهر - عما يشغل الشيوخ، ويبدو أنهم تركوا الأمر لكبير النجع يصرّفه، وهم في الواقع إنما تركوا أمرهم لله الذي به يؤمنون، والذين يزيدهم إيماناً به سماعهم الأذان كل وقت ينادي.. الله أكبر.. الله أكبر..».

وهناك بعد هذا كله الغرباء من أبناء النجع الذين تركوه طلباً للعلم أو سعياً للرزق أو رفضاً لأرشدية الشيخ عليش، فأثار الشيخ حولهم الشكوك

لوجودهم في البندر، حتى من سعى منهم إلى إعانة موطنه الذي لا يستطيع له تنكُراً.

إنّ الخطر غدا أخطر مما يستطيع أبناء النجع ردّه، أو الإقدام على صدِّه.. إنهم يسيرون في الطرقات يملؤهم الحماس.. ويجلسون في المقهى يسكرهم الحشيش.. أو يتحلّقون تشغلهم المناقشة والتأسي على الماضي.. ولكنهم لا يعلمون ما يفعلون.. فالخفراء الذين لهم وحدهم حقّ حمل السلاح.. قد ارتدوا عن منافذ البلدة واستقرّوا فيها، وأهل الكفور قد نفضوا أيديهم من النجع وأبنائه، وإن ظلُّوا يزيدونهم بالكلام يحمله الرسل إلى الشيخ عليش القابع في بيته.. والخواجه غبور وإخوانه قد كفّوا يدهم عن دفع تكاليف الزراعة وراحوا يطالبون بديونهم القديمة وفوائدها.. وقطّاع الطرق تكالبوا على أطراف النجع يسرقون المارّة وينهبون المحصول..

* * . * *

كان سليمان وعبد الرزاق غارقين في همّ شديد؛ يفكّران في حاجة النجع، ويأسيان على ماضيه، ويؤرقهما شعور بالذنب، فهما ـ من قديم ـ من مشايخ مجالس العرب، لهم في هذا المجال مكانتهم بين الناس، يفضّون المنازعات، ويقضون بين الناس بالعدل.. ورضي الناس أحكامهم، وحسنت بينهم ذكرهم.. وما استطاع كبير النجع وقتذاك أن يتدخل في قضائهم، وعرفهم أهل الكفور الأخرى، فكانوا يطلبون عونهم إذا كانت قضيته كبيرة يحكم فيها «مجلس عرب» أو كانت مشكلة شائكة تحتاج إلى رأي جريء لا يلاين ولا يداهن، إنهما يذكران اليوم.. وقد تركا مجلس العرب.. ذلك الماضي يتأسيان عليه، ويتمنيان لو أنهما بقيا كما كانا، ولكنهما كانا يرجوان إصلاحاً آخر.. إصلاحاً لحال النجع كله ـ أبنائه

وحكّامه ـ ولا يكتفيان بأن يحكما في نزاع، أو يشيرا بالحقّ في مشكلة.

ودعاهما ذلك الرجاء في الاصلاح العام إلى تأييد الشيخ عليش وأعوانه حين تمرّدوا على محجوب أفندي، وبلغ تأييدهما مبلغاً خالفا به «الحقّ» الذي كانا يتمسّكان به في القضاء.. وليس في هذه المخالفة غرابة ولا عيب في ظنّهما؛ فالقضاء شيء، وإصلاح حال البلد شيء آخر، القضاء لا يعرف إلّا الحق وحده ينطق به، والاصلاح قد يحتاج إلى تأويل وتدبير يبدو في أوله مخالفاً للحقّ، ولكنه يسند الحقّ في النهاية.. هكذا ظنّا، أو هكذا اقنعا نفسيهما، أو هكذا اقنعتهما نفساهما الراغبة في مزيد من السلطة.. السلطة التي تصلح البلد، ولا تكتفي بالعدل بين الناس في القضاء؛ إنّ الأمر عندهما أعمق كثيراً من العدالة القضائية، إنه يكمن في أُسلوب سياسة أُمور البلد كله، من أبسط «كلّاف» يطعم الماشية ويعيش معها إلى أكبر شخص يجلس في قصره كبيراً للنجع، وله وحده حقّ التصرّف في الخفراء الخصوصيين.. وفي التلفون..!

ورضي الشيخ عليش عن تأييدهما، وعيّن ـ مبكّراً ـ سليمان شيخاً للبلد، وأبقى عبد الرازق شيخاً لمجالس العرب، وقرّبه، يستشيره، ويفضي إليه بأسراره.. ثم يفعل بعد ذلك ما يشاء...

وحين رفض الشيخ حسن والشيخ مصطفى أرشدية عليش للنجع، تلك الأرشدية المفروضة ببنادق الخفراء، حار سليمان وعبد الرازق في أمرهما؛ فهما مقتنعان بموقف الشيخين المتمردين على السلطان، ولكنهما لا يقرانهما. إنهما لا يحبانهما من عهد بعيد، برغم سابقة الزمالة بينهم جميعاً في مجالس العرب.. وهما يخشيان أن يؤول السلطان لأحدهما، وهما ذوي عصبية في النجع يمكن أن يتوليا بعصبيتهم سلطاناً.. ولا سلطان لسليمان وعبد الرازق إلّا مناصرة الخفراء لهما، ورضاهم بتأييدهما وعونهما..

وما أن انتهى الشيخ عليش وأعوانه من معارضة الشيخ حسن والشيخ مصطفى لهم، حتى التفتوا إلى هذين المؤيدين وأمثالهم.. فاستبعدوهم من مجالسهم.. وأُسدل عليهم ستار كثيف؛ فلا الناس يذكرونهم بخير، ولا الخفراء يطمئنون إليهم.. فصار لهم - مع أمثالهم - مجلس في ركن المقهى، يتحلّقون فيه، يناقشون الأمور - نظرياً - ولا يستمع إليهم أحد، غير النمّامين ينقلون ما يقولون إلى «الكبير» بعد أن يحرِّفوه على هواهم..

وظنّ الرجلان الفاضلان أنهما أذنبا.. وكان سليمان أشدّهما شعوراً بالإثم، لأنه كان أكثرهما تأييداً لعليش وأعوانه، وإغراءً لهما بأبناء النجع، وأرادا أن يكفِّرا عن ذنبهما.. وسليمان أولاهما بالتكفير عن ذنبه، وكان أفقه الشيوخ المتحلِّق في كل ليلة في المقهى أن يقوم سليمان بعمل جريء؛ فينصح الشيخ عليش بالتخلي عن مركزه، ويطلب من الشيخ مصطفى أن يتولّى أمر النجع لينقذه من الخراب، ويسعى ليخرج الشيخ حسن من المنضج ليساهم وقومه في فك حصار اللصوص للقرية وأهلها...!

وتمّ العمل الجريء.. فلقي الشيخ عليش ونصحه.. فاستمع إلى نصيحته، وصرفه دون جواب..! وذهب إلى بيت الشيخ مصطفى فرفض لقاءه، وأرسل له ابنه يقول: إنّ من خرب البلد عليه أن ينقذها..! وزار الشيخ حسن في المنضج بإذن العمدة، وتحدّث إليه، فأشاح الشيخ بوجهه، وقال: إنّ أبناءه وأهله «أسرى»، فليطلق سراحهم، سيحمل السلاح منهم من يستطيع..! ويتهامس «أسرى المنضج» بكلمة نسبت إلى الشيخ حسن ولم يفهمها الكثيرون «بين اللصوص والكلاب ضاع النجع وأبناؤه..!».

* . * . * . *

في غرفة داخلية من منزله، جلس الشيخ عليش، هادىء المظهر كعادته، مضطرب النفس كعادته أيضاً.. إنّه يواجه خطراً كبيراً، ولكنه محقّ

في كل ما فعل، وإن أوصله إلى هذه الـورطة. . الـورطة التي أصبـح الكثيرون يظنّون أنها ستطيح به وبالنجع.

أما النجع، فربمـا أضرّت به هذه الورطة. . ولكن أن تطيح به هو شخصياً. . أن تنزعه من بيته ونجعه الذي عاش فيه وله، أن تخرج الخفراء من طاعته، أن يصبح «شريداً» يعيش في البندر. . فلا. . هذا لن يكون مهما كلّفه الأمر.

وينظر إليه المحيطون به، ولا يفهمون ما يدور بذهنه. ترى هل كان يعرف سلفاً كلّ ما سيحدث. ومع ذلك فعل ما فعل؟ صحيح أنه عبقري. . ولكن البلد في ورطة. . وهو سبب هذه الورطة. . فقد استقل بالأرشدية وحده، وأزاح من طريقه كل أصدقائه وأعوانه من أبناء النجع. . ولم يبق غيره. هل سيستطيع شيئاً. .؟

لقد ذهب الشيخ عليش إلى مسجد النجع ظهر اليوم، وتحدّث إلى الناس بعد الصلاة. . وذكّرهم بالله جلّ جلاله. . وذكّـرهم بتاريـخ هذا النجع، وببطولة جدّهم أبي زيد الهلالي الذي كان سيفه يطيح بالرقاب. . ! لقد كان متهدج الصوت، يكاد يبكي انفعالاً لا ضعفاً. . وانفعل أبناء القرية بما قال، وحمل كلّ منهم عصاته، إذ لا سلاح لديه غيره - وخرج إلى الطريق ينتظر الأمر له بالخروج إلى الأطراف حيث يكمن اللصوص بين زراعات «القصب». صحيح أن أصحاب العصا يتحمسون، ولكن حملة البنادق من الخفراء عادوا إلى القرية، يحيطون ببيت «العمدة» أو يثرثرون في المقهى. . !

والشيخ عليش يجلس في غرفته الداخلية، أمامـه التلفون. . وحـوله بعض الخفراء. . يدخل عليه من يـأذن له، ويحجب عنـه من لا يريـد لقاءه. . ! «لا ينام الليل ولا النهار. . وإنما يغفو جالساً حيث هو إن غلبه

النوم، وكان في نومه يستجمع حواسه، ربما لا يرى، ويسمع ما يدور حوله من همس. فإذا صحا ـ وهو صاح أغلب وقته ـ استمع إلى محدِّثيه وقلَّما أجاب. . وعينيه متعلقة «بالتلفون» لا يدري أحد لماذا؟

ماذا فعل ليقع في هذه الورطة؟ إنه أراد الخير لبلده. . وسعى إلى ذلك. . ! إنه نحّى الطامعين من حوله لأن نوازع الطموح يخرب البلد، ويناقض فهمه للأرشدية المطلقة التي يلمُح إليها في أحاديثه ولكنه لا يصرِّح بها. لأن وقت التصريح بها لم يحن بعد. . ! إنَّه رفض الاستدانة من أصدقائه التقليديين «غبور وإخوانه» لأنه رآهم يريدون الفائدة. وعند أول سلفية مع «الخواجه صوصه». . وبين الخواجه صوصه والخواجه غبريال عداء تقليدي. . ولكن ما شأنه هو بهذا العداء. . الذي يهمه مصلحة البلد. . واعتدال الفائدة!

لقد حرص منذ سنوات على أن لا يقع في ورطة مع لصوص «المديرية» الذين لم تستطع فترة السكون كلها أن تلزمهم حدودهم. . فأظهر لهم العداء، وأسرّ لهم وداً، واتفق معهم على نوع من التعايش السلمي. . فهم لا يعرِّضون أمر النجع لخطر، ويحصلون على اتاوة سرية لا يعلمها غيره. . ! ويأذنون له أن يسبَّهم في مجالسه وأمام أبناء الكفور المجاورة! لماذا نقض اللصوص اتفاقهم معه، وجاءوا يحتلّون الأطراف ويعيثون في أرض النجع فساداً؟. . «ساردُهم من حيث جاءوا. . !» بهذا حدَّث نفسه في إصرار وعناد. . !

الاصرار والعناد ورباطة الجاش، هذه الصفات التي أهّلته لما وصل إليه من مكانة؛ إنها صفات أصيلة فيه، ورثها عن أمه. إنه لم يرث عن أبيه الفلاح الساذج الطيِّب شيئاً إلّا الذهاب إلى المسجد أحياناً. . أما طباعه الأصيلة التي نجح بها في حياته ـ الإصرار والعناد ورباطة الجاش ـ فقد

ورثها عن أُمّه.. إنه لا يكاد يذكر عنها إلاّ القليل.. كم حاول أن يعلم عنها أكثر مما يذكر، ولكن الناس ـ بما فيهم أبوه كانوا يحجمون عن الكلام عنها.. لقد اختفت من حياته ـ ومن حياة النجع كله ـ وهو طفل صغير يتردد على الكتّاب. عاد يوماً فلم يجدها في البيت. لقد اختفت؟ هكذا قيل له يومذاك. هل هربت من زوجها. هل طردها الفلاح الساذج، هل خطفها أحد، هل ماتت.؟ أم هل عادت إلى أهلها الغجر الرُّحل الذين وفدت معهم إلى النجع يوماً ما. لا أحد يدري.. ولا هو يدري.. ولكن الذي يدريه ويذكره جيداً رقصها له في البيت إذا عاد من الكتّاب، لا يعنيها وهي ترقص أن يحترق الخبيز، أو يفور قِدر الطعام على النار..! كان تصرّفها هذا يغضب أباه.. ولكنها كانت تقف أمام غضبه بإصرار وعناد ورباطة جاش..!

وندّت دمعة من عين الشيخ عليش، لم يرها أحد حين مسحها بكمه..! سأخرج من هذه الورطة أو أموت حيث أنا كبيراً للنجع..! بهذا عاد يحدّث نفسه.

وأذن لزملائه القدامى أن يدخلوا عليه.. إن معهم صالح الذي كان صغيراً ثم أصبح بعد انفراد الشيخ عليش بالأرشدية ـ منشداً.. وتحدّثوا إليه.. ولم يخف صالح رايه وراي أصحابه «هم عاوزين يطيحوك أنت يا عمدة.. وأسيادك قبل كده طاحوا.. سيب النجع بخير..!» ولم يجب الشيخ عليش، ولكنه همس لنفسه وهو رابط الجاش «سأخرج من الورطة وأوريك يا ابن الـ...!» وابتسم هادئاً، وأذن لسليمان أن يدخل عليه..

ودخل سليمان، وأكّد انه يعبّر عن رأيه وحده، ولم يتفق مع أحد، وطلب من الشيخ عليش أن يعهد إلى الشيخ مصطفى بأمر البلد حتى يتم اختيار عمدة جديد.. واستأذن في أن يقابل كل من الشيخ مصطفى، والشيخ حسن. وأذن الكبير وهو هادىء يبتسم.. لا يعلم أحد ما يعلن في

نفسه.. وهو يتمتم لنفسه «سأخرج من الورطة.. وأوريكم كلكم..!».

ولم يبق مع الشيخ عليش إلا اثنان من زملائه القدامى. عبد الحميد وعبد الصمد.. وقلة من خفرائه.. ونظره معلّق بالتلفون الصامت منذ أيام.. وطال الانتظار، حتى أيس الحياة من التلفون فعلا رنينه في الحجرة، والتقطه أحد الخفراء وناوله إلى يد الشيخ عليش الممدودة في صمت.. ثم خرج الجميع....

* . * . * . *

دخل بعض الخفراء إلى المقهى، واقتاد أحدهم سليمان إلى المنضح وأعلن الباقون النبأ السار على الجالسين، ووزع الشاي مجاناً قبل أن تُغلق المقهى أبوابه..

لقد خرج النجع من الورطة بفضل الشيخ عليش وجهوده.. وعُرِفَ الخائنون..!

الخواجه صوصه يتدخل لمصلحة النجع.. والخواجه غبور اتصل شخصياً بالكبير وأبلغه أن المركز سيرسل عساكره تحمي حدود الأطراف.. وفرَّ اللصوص لينجوا بأنفسهم.. وعادت إلى النجع أرضه.. وكرامته.. ومحصوله.. وسينال مزيداً من السلفة من صوصه وغبور..

لقد نجح الشيخ عليش، وخرج من الورطة.. وآن له أن يؤدِّب من لم يناصره في ورطته.. وأن يشتهر اسمه في الكفور كرمز للنصر على لصوص المديرية.. وكالأرشد الرهيب لنجع أبي زيد، أكبر نجوع المنطقة بأسرها...

* . * . * . *

[٧]

انتشر المنشدون في جنبات النجع ينشدون شعرهم الجديد الذي يروي قصة النصر الذي حقّقه النجع على أعدائه مجتمعين. . وكيف كان الشيخ عليش وحده، قائد هذا الانتصار الباهر. . إنّه حرّر النجع من سيطرة المرابين وعنت اللصوص. . وأسعد الأرض وأهلها وكفل لهم الكرامة والرزق الوفير. . وزادت القصة التي ترويها الربابة على ما حدث أموراً لا يذكر أحد أنها حدثت. . ولكن لا بد أنها جرت في خفاء من الناس ما دام المنشدون يقولون ذلك، فإن الشيخ الأسمر الطويل وراءه أسرار وأسرار، لا يعلمها إلاّ هو، وعلاّم الغيوب.

وعرف الناس ـ من شعر المنشدين ومن حديث الشيخ ـ أنه من نسل سحاب. . الجدّ الأكبر لأبي زيد الهلالي، وصاحب المجد الأصيل لأبناء النجع وما جاوره من بلدان. . .

وعرف الناس ـ من شعر المنشدين وصمت الشيخ عند سؤاله ـ أنه يحمل حجاب النصر. . ذلك الحجاب القديم الذي اختفى قروناً عديدة، ولعلّ الطفل عليش ـ أو أُمه ـ وجده بين تلال الكفر القائمة في بطن الوادي شمال النجع. . وحمله الفتى ـ أو علّقته أُمّه بعنقه ـ وظلّ يحمله حتى صار رجلاً. . وهو يحمله الآن ـ وإن لم يره الناس ـ وهو كبير النجع وسيده .

وعرف الناس ـ من شعر المنشدين وأقوال القادمين من البندر ـ أن

الخواجه غبور واخوانه، والخواجه صوصه وأصحابه والنقطة والمركز والمديرية أيضاً، يحسبون للشيخ عليش ألف حساب، يخطبون وُدَّه، ويرسلون المراسيل إثر المراسيل إليه، عسى أن يرضى عنهم، ويجعل أهل النجع يرضون عنهم.. ولكنه ـ في إصراره وعناده ـ يأبى، ويفرض شروطه.. ولا يقبل شروطاً يريدون فرضها عليه، لأنّ النجع ـ أو بالأحرى الشيخ ـ يجب أن يستقلّ بتحديد خطَّته التي يسير عليها وضعه شأنه وشأن آل سحاب جميعاً.

وكان منشدو نجع أبي زيد ـ من قديم ـ أشهر المنشدين في المنطقة كلها، وكان النجع أكثر القرى سكاناً وأملاهم ثقافة، واعرقهم محتداً، فاعتاد أبناء الناحية أن يتناقلوا شعرهم، ويتفنّن المنشدون في القرى الأُخرى في الأخذ عنهم، ورواية قصصهم بلهجاتهم وألحانهم المختلفة.. يضيفون بها ما يضيفون، وقد يسقطون منها ما لا يناسب قراهم.. وما كان يحدث قديماً حدث هذه الأيام، وعلى نحو أكبر وتأثير أعمق.. فراح منشدو القرى يردُدون قصَّة الشيخ عليش سحاب، الذي سيوحِّد آل سحاب في نجع واحد، تكون له الرفعة بين البلاد كلها.. وأنه بطرد اللصوص من المنطقة، فيسير الفرد من أقصاها إلى أدناها لا يخشى على نفسه أو ماله أبناء الليل.. وأنه سيقطع دابر المرابيين الكبيرين اللذين لا تعيش قرية إلاّ على حسابهما وبرضائهما..

وهكذا بدأت أنشودة السحابية تأخذ طابعاً جديداً.. طابعاً يتغنَّى به منشدو نجع أبي زيد، ويسانده الشيخ عليش.. وليست مساندة الشيخ عليش بالأمر الهيِّن، فهو بطل الانتصار الباهر.. وهو أمل الوحدة السحابية، وهو طارد اللصوص والمرابين بإذن الله..

ولم تكن أُنشودة السحابية، وقصة آل سحاب ووحدتهم، بالجديدة،

بل هي أُنشودة قديمة، ترنَّم بها بعض المنشدين من قبل، ولكنها كانت أُنشودة باهتة، قليلاً ما تلقى أذناً تصغي، او لساناً يردِّدها من بين الناس. كان يترنَّم بها بعض المنشدين من عملاء غبور ـ ويترنَّم بها بعض آخر من عملاء صوصة. وبعض ثالث ليس عميلاً لأحد، ولكنه أقلّ شأناً من أن يؤثِّر في الناس بأناشيده. حتى جاء اليوم الذي ترنَّم بها كلّ المنشدين على وتيرة واحدة، وفي تناسق عجيب مع المنطقة.. ولا عجب فقد تبنَّاها أبو السحابية الحديثة، الشيخ عليش، قاهر اللصوص والمرابين، ومحبوب الفلاحين والرعاء والكلافين في كل مكان..

ومع انتشار أُنشودة السحابية، بين أبناء الكفور المجاورة يعتنقونها، وإن لم يعتنقها أغلب أبناء النجع الذي هو مصدرها. كم من قرية كانت تقضي الليل ساهرة تسمع أُنشودة السحابية، وقصة الشيخ عليش، ولا تسأم سماعها. تسمعها علانية ما رضي عمدتها، وتسمعها سرّاً، إن خشي العمدة من انتشارها. كانت الأنشودة وتصور الناس للشيخ عليش سحاب.. تحدث في نفوسهم أثراً عميقاً؛ شعوراً بأنهم يحلِّقون في السماء ليصلوا إلى مجهول يتمنُّونه، وانطلاقاً إلى النجع للوصول إلى ذلك المجهول، وسخطاً على عمدهم الذين يبدون أقزاماً إذا قورنوا بالشيخ السحاب الأسمر الطويل..

وقلَّت زيارات الناس إلى مقام السيد البدوي.. وقلَّت النذور لسيدنا الحسين وللسيدة زينب، وحلّ محلّ هذا كله ـ من أبناء القرى ـ زيارات لنجع أبي زيد، ونذور لهذا النجع الكريم موطن السحابية وجذوة شعلتها. وكان الزائرون يكتفون برؤية الشيخ عليش، وكانت النذور تنتهي إلى يد الشيخ عليش ليتصرَّف بها كما يرى.. ولا يعلم أحد كيف كان يتصرَّف بها.. ولكن أحداً لم يخامره شكّ في حسن تصرفه، وكيف يشكّ أحد في

الشيخ عليش وهو الطاهر الأمين المخلص الذي يفني حياته لأجل آل سحاب، ووحدتهم ورفعتهم.

لم يكن أحدٌ يشكّ في طهر الشيخ عليش وأمانته.. حتى خصومه لم ينكروا ذلك. كان الكثير يخالفه الرأي، ولكن أحداً لم يطعن في طهره وأمانته. كان الجميع يشهدون له بذلك، شهد به المتشددون، وشهد به المحبون والكارهون، وشهد به الواقع الذي يعلمه الناس ويرونه بأعينهم حين يراقبون حياة الشيخ ومسلكه، قبل أن يتولى أمر النجع وبعد ذلك.

كان عمد القرى، والأثرياء فيها. والفقراء إن أمكنهم.. يزورون البندر بين حين وحين، يجدوا لأنفسهم مجالاً لما قد يتظاهرون بالترفع عنه من الصغائر وهم في بلدهم، هناك في البندر ـ بعيداً عن الناس ـ كانوا يشربون ويحششون ويقضون الليل مع الغواني. وكانوا يسرفون في ذلك أشدّ الاسراف. بل كان بعضهم لا يستخفي عن الناس، فله في بيته جناح لغانية أو راقصة، وله في المقهى ركن هادىء يجد فيه شرابه أو حشيشه، والناس في السوق لا تخفى عنهم هذه التصرفات. أعلن عنها فاعلوها أم اسْتَخْفوا فيها.

أما الشيخ عليش، فلم تكن له صديقة قط، ولم يشرب الخمر، ولم يدخُن الحشيشة، وكان معروفاً بين أصدقائه ـ الذين انقلبوا عليه أو انقلب عليهم ـ بذلك. شهدوا له به وهم أصدقاؤه، وشهدوا له به وهم أعداؤه.. وهو لم يزر البندر إلاّ لعمل يبغي به مصلحة النجع عند المأمور أو المدير أو أحد المرابين، أو طلباً للبركة عند وليّ من أولياء الله الصالحين. زار القاهرة مرة ليقرأ الفاتحة في مقام سيدنا الحسين، وغادرها إلى طنطا لزيارة السيد البدوي، ثم عاد في ذات اليوم، ليقضي ليله بين أهله وذويه في النجع. ما أسرف على ملذّاته مما أؤتمن عليه من ماله ومال أُسرته ونذور المحبين

له.. فلم تكن له في الدنيا ملذات، إلاّ «السيجارة اللف» التي يلفها بيده، ويدخّنها في جلساته مع الناس، وإذا انفرد بنفسه يفكّر في أمر الناس أو في أمره.. لا أحد يعلم إلاّ الله.

أين أمانته وعفته إذن من حال غيره من العمد، وخدم المساجد، ومشايخ الطرق.. كان في القرى كلها مضرب المثل في الأمانة والعفة.. والتواضع أيضاً. كان يعرف كيف يتواضع للناس، يقابل من يريد لقاءه مبتسماً منبسطاً.. كان لبق الحديث، يخاطب الناس بأسلوبهم، فيفهمونه، وينفعلون بما يقول.. وكان يعلم من أُمور الناس كلُ صغيرة وكبيرة، فهو إذا تحدّث، ذكر لهم من أُمورهم ما يظنونه خافياً عنه.. فيزيدهم هذا إعجاباً به ورهبة له..

وتمنّى أبناء القرى المجاورة لو أطاحوا بعمدهم. وصاروا لنجع أبي زيد تبعاً، يحكمهم الشيخ عليش، بوصفهم جميعاً من آل سحاب الكبير. وقد روى المنشدون أنّ كفراً من الكفور ذهب بجمعه وعمدته إلى نجع أبي زيد، واختار الشيخ عليش كبيراً له.. وأن النجع أسند في ذلك الكفر جميعاً حتى عمل المرابون في البندر إلى فصلهما ثانية.. هكذا يقول المنشدون احياناً، ولكن احداً لا يعلم أحَدَثَ ما يروي المنشدون أم لم يحدث.

وكان مساء، وإذا بالقرى تنشد جميعاً نشيد السحابية كأنها على موعد.. وإذا بالأنشودة تذكر «نجع أبي زيد»، بانه «نجع سحاب».. ويحير الناس أول الأمر، ولكنهم صدّقوا مع الصباح حين علموا بأنّ الشيخ عليش أطلق على النجع هذا الاسم، وأن الحكومة وافقت على الاسم الجديد، وراح كل أبناء النجع يضيفون إلى اسمهم لقب سحاب، ومحي اسم أبي زيد من أسماء الناس، إلاّ القليل الذي ظلّ يتردده مقروناً باسم سحاب.. الجد الكبير، الذي ورث صفاته الشيخ عليش.

وأصبحت السحابية طريقة حديثة، ومذهباً في الحياة.. وأصبح نجع سحاب مركزاً لتعاليمها.. وأصبح الشيخ عليش حليفها الأوحد، يذكر الناس فضله طوعاً أو كرهاً.. يخافه أبناء النجع، ويكرهه عمد الناحية، ويحبّه فلأحو الكفور ويتبركون به...

وزادت حاجة الشيخ عليش إلى المال، وكثر خفراؤه.. وأصبح في النجع أكثر من شيخ بلد، وأكثر من شيخ خفراء.. وكان حتماً أن يتحمل أبناء النجع في سبيل السحابية بعض التضحيـات..

وتوارى الشيوخ القدامى، ولم يعد في البلد شيخ غير كبير النجع.. مات من مات، ولزم منزله من لزمه، وبقي في المنضح من بقي.. وامتلأ المقهى بروّاده، ينشدون أو يسمعون أو يثرثرون.. وهم في كل الحالات يشربون الشـاي، ويدخنـون الحشيشة الـذي تسابق عمـلاء المرابين في توزيعه.. فكثر في البلد ولكن ساء نوعـــه...

*. *. *. *

[٨]

تكاثرت الأعباء المالية على النجع، فزعامته لآل سحاب، ومكانته بين البلاد، والنفقات الباهظة التي يحتاجها الخفراء والمنشدون، كلّ هذه أعباء جديدة على النجع أن يواجهها.. ثُمَّ هناك نفقات «الكلاب» التي لا يعلم أين تنفق غير الشيخ وبعض وكلاء شيخ الخفر في البلدة، هذه «الكلاب» التي لا يميِّزها عن الناس، إنهم يلبسون لباسهم، ويعملون في الظاهر عملهم، ولكن يدير شئونهم شخص أو أكثر يأتمرون بأمر الشيخ مباشرة.. وهذه الكلاب تفعل ما تُؤمر به دون أن تزنه بموازين العقل أو الضمير.

إنها مجرد كلاب، وفيَّة لسيدها وإن أجاعها..

كيف للشيخ أن يواجه كلّ هذه الأعباء المالية..!

وجلس الشيخ متربعاً على أريكته في غرفته الخاصة يشاور خلصاءه..،

فقال قائل: أن تستدين من غبور واخوانه مزيداً من مال..!

وقال آخر: بل تستدين من صوصة فهو أهون شروطاً..!

وردّ الشيخ: أنه لا يقبل ديناً برهن..؟

ووعد الرجلان بالمسعى لذلك وانصرفا..؛

وطالب الشيخ الباقين بمزيد من مشورة،

فقال واحد : أن نخفف نفقات الخفراء. . ؛ فسمع ردّاً لا يناقش. .

أتريد أن ينهب اللصوص البلد؟

وقال ثان : أن نخفف نفقات المنشدين. . فسمع ردّاً لا يناقش:

أتريد أن تخبو شعلة السحابية التي بمثّلها نجع سحاب؟

ولو أن مثل هذا الرد أو ذاك جاء من غير الشيخ عليش لأمكن أن يناقشه سامعوه. . ولكن من الشيخ عليش فلا، فهو العليم ببواطن الأمور، الذي يزن ما يقول، والذي لم يعتد مستشاروه أن يخالفوه منذ انحصرت وظيفتهم في أن يلتمسوا ما يريد ليقولوه.

وانفضّ الاجتماع على أن يعود بعد أيام. . حين يرى الشيخ عودته. .

وتساءل الشيخ محمد ـ بينه وبين نفسه ـ ما قيمة الاجتماع بعد أيام. . وفي الغد الليلة الكبيـرة للمولد، ولا بد في المولد من حديث جديـد للشيخ. . وهزّ الرجل رأسه ليكف عن التفكير. . وقال: «الله أعلم». . ! فسمع صوتاً يهمس في أُذنه «والشيخ عليش يعمم أيضاً. » فنظر خلفه، فوجد واحداً من الكلاب يرقبه. . !

خرج المجتمعون، وجلس الشيخ وحده يبتسم، راضياً عن نفسه، ساخراً بمن يستشيره. . ! إنهم لا يعلمون ما يريـد، ولو علمـوا لاستقام تفكيـرهم عنده، واتفقت مشورتهم مع رغباتـه . ومـا عليـه منهم ومن مشوراتهم، وإنما يسألهم ليستشفّ ما وراء مؤازرتهم له. . إنهم كاذبون مُدَّعُو علم. . وهم جاهلون منافقون. . إنه يستطيع وحده أن يناقش الأمور بينه وبين نفسه، إنه يستطيع أن يجري حواراً كملاً في عقله الكبير بين مختلف الآراء في النجع، والكفور المجاورة، ثم ينتهي إلى قرار. إنّ كل ما اتخذه من قرار فهو صواب. . هكذا اعتاد أن يسمع من الناس. . إنّه وحده المصيب، وكلّ من خالفه مخطىء . هذا ما استقرّ في نفسه وفي

نفوس الناس.. وإلاّ فلماذا يستطيع دائماً أن يجبرهم جميعاً على تنفيذ ما يتّخذه من قرار. إنه الآن «الكبير» كبير النجع، وكبير الكفور المجاورة.. كبيرها جميعاً وإن رغمت أنوف العمد الذين تصفرُّ وجوههم لذكره.. والآن؛ ماذا يريد..؟ وماذا يفعل؟ ماذا يفعل ليحقق ما يريد..؟

فيم يفكر الناس..؟ في اللصوص..؟ في الكلاب..؟

كم هم سخفاء في تفكيرهم.. إنّ اللصوص باقية، ولا خطر منهم.. والكلاب باقية لأنه بريد بقاءها.. إنه يتصرّف في شأنها كما يريد..! الكلاب واللصوص خرافة ورثها، وزادمن ضخامتها، وشغل الناس بها. أما هو فلن تشغله في شيء..

إن بعض الناس يكرهه، وليس هذا جديداً عليه، فكم كرهه رفاقه طفلاً وشاباً.. لا يعنيه أن يحبّه الناس، ولكن يعنيه أن يخافوه، فيتظاهروا بحبّه..! يعنيه أن يحتاجوا إليه جميعاً، ليشعروا حقيقة أنّه «الكبير» فحاجة **إنسان إلى إنسان هي التي تذلُّه وتخضعه..**

إنه يذكر طفولته وشبابه. يذكر كيف كان يناديه البعض - ومنهم أبوه - بابن حبنظة. كم كان يغيظه هذا النداء ويحنقه.. لن يرتاح حتى يموت كل من يذكر ذلك من أبناء النجع..! وإنّه ليذكر كيف كان رفاقه يسمونه «بالأبكم»، لأنه كان اقلّهم كلاماً.. وأكثرهم تفكيراً..! كم كان يغيظه هذا الاسم ويحنقه... لن يرتاح حتى يذلّ هؤلاء جميعاً..! إنه اليوم أسبق الناس حديثاً. ولكن هذا لا يكفيه. لا بدّ أن يذل الناس له.. أن يحتاجوا إليه.. ومن رفض أن يذلّ، فلا مكان له في النجع.. إن مكانه الطبيعي «المنضح».. أو «القرافة».

وفي الفجر، كان الشيخ عليش لا يزال جالساً مكانه، وكأنما أغفى اغفاءة بسيطة.. واستيقظ على صوت المؤذن ينادي «الله أكبر» «الله أكبر»

وانتابه إحساس غريب من هذا النداء.. إنه مسلم مهما تشكك.. وليس النداء جديداً عليه.. ولكن لماذا يثيره تفكيره في أنه «الكبير».. وأن «الله أكبر». هل يرتفع صوت المؤذن بهذا النداء لأنه عبد..؟! وأطرق، وأغمض عينيه.. حاول أن يغفو ثانية، فما استطاع..

إن شيئاً لا يزال يؤرقــه.!!!!

* . * . * . *

وكان مساء الغد، الليلة الكبرى للمولد...

وازدحم الجرن الكبير بالناس، من أبناء النجع وأهل القرى المجاورة.. حتى ضاق بهم.. وجلس البعض على السور.. وأحاط البعض بالجرن يكتفون بما يصل إلى مسامعهم (وإن لم يسمعوا كل شيء) وهم على كل حال لا يرون شيئاً على الاطلاق، وإن تصوروا ما يجري في الجرن، فهو أمر يجري كل عام..!

الخفراء النظاميون والخصوصيون مصطفّون، والناس مزدحمون، والكلاب منبثّة في كل مكان تشمشم هنا وهناك. وأريكة الكبير خالية في انتظاره مهما طال الانتظار. والناس في نشوة لا يعلمون سببها؟ فمن مستمع إلى منشد، ومن لاهٍ بسماع «الطبل» ومشاهدة راقص أو «غازية»[1]، ومن منشغل بالذكر يطوّح رأسه وجسمه يميناً وشمالاً.. وليس ما يمنع كل واحد من هؤلاء جميعاً أنه يأوي إلى «ركن الجرن» حيث أقام صاحب المقهى «نصبة» فيحتسي كوب شاي أو يشدّ نفساً من تعميرة.. وكان هؤلاء جميعاً مشغولين أثناء النهار برؤية «البرجس»[2] و«التحطيب»[3].

وغير بعيد من أريكة العمدة الخالية، جلس الشيخ محمود القرفصاء يتأمل ما يرى أمامه، مما يقع عليه بصره وما لا يقع. لقد شهد هذا المولد

---

(١) غازية : راقصة شعبية.

(٢) البرجاس : رقص الخيل.

(٣) التحطيب : مبارزة مع الرقص بالعصا.

من قديم، وشهد ما يدور فيه.. ذات المنشدين، وذات الطبل، وذات الغوازي، وذات الخيول، وذات العصا.. ولكنه يذكر أن المناسبة كانت تختلف.. إنها مناسبة المولد. ولكن مولد من يا ترى؟ لم يعد يذكر.. ونظر إلى يمينه حيث يجلس عبد الصمد أفندي الذي عاد إلى البلد أيام المولد كما يفعل كل من يعيش خارج النجع بإذن من الشيخ عليش.. نظر إليه فرأى في عينيه ذات الحيرة، وتجاسر فسأله:

ـ مولد مين ده يا سيد سيد أفندي..

ـ [مبتسماً في هدوء] والله ما أنا عارف.. أهو مولد «ولي» دفنّاه سوى زمان.. لازم الكبير فاكره..!

وعادا إلى الصمت، والتأمل فيما يجري حولهما..

لقد تغيرت وجوه الوجهاء من الحاضرين.. لم يعد باقياً من الوجوه القديمة غير الشيخ محمود، وعبد الصمد أفندي، وسيد أفندي، وعم رياض.. أما الباقون، فقد اختفوا عن الأنظار.. لا تراهم في المولد.. وقد تراهم في المقهى.. وأغلب الوقت هم، ببيوتهم قابعون،

وعلت الموسيقى، واضطربت الصفوف.. ودخل الكبير الجرن، فجلس على أريكته دون أن يلقي بالاً لأحد، أو يحيّي أحداً.. وأحاط به صفوة خفرائه وقوفاً ببنادقهم.. وأطلقوا أعيرة في الهواء تحيّة له.. هكذا يحدث كل مولد..!

في كل مولد يتحدّث الكبير حديثاً لا يسمعه إلّا القريبون من أريكته.. ثم ينقلونه إلى الناس.. ويسري ما قال في النجع.. وفي الكفور المجاورة.. ويعلم به كل من له في النجع أو المنطقة مصلحة.. ثم يحيله المنشدون قصة تُروى ونشيداً يغنّيه الناس.. لا يعني أحداً أن يفهمه، ولكنه يطرب له، ويشعر بالنشوة حين يردّده.. ذات النشوة التي يجلبها الحشيش،

فإذا اجتمعت النشوتان تزايدتا..

ولكن حديث الشيخ عليش هذا اليوم كان غريباً، كان مفاجأته لمن يخالطه ويشير عليه ويعيبه في عمله.. إن لم يشعر عامة الناس بغرابته، فهو يحمل نشوة تضاف إلى نشوتهم.. فكيف أن يقوله الكبير ليكون شيئاً يستحق أن ينتشي به أبناء النجع.. بل أبناء الكفور المجاورة كلها..

كان حديثاً عن «الأرشدية السحابية» والناس لم يفهموا بعد ما هي السحابية، فكيف يفهمون قرنها بالأرشدية، وقرن الأرشدية بها.. لقد أشكل الأمر على السامعين.. ولكن لا شكّ أن الكبير يريد خيراً، فهو لا يريد إلاّ الخير.. هكذا يقول المنشدون.. وبهذا يجب أن يقتنع الجميع..!

أما السحابية وحدها، فأمرها معلوم، بأنها تكتلّ أبناء سحاب، ليكونوا قوّة تفيد حالهم تجاه عمدهم، وتجاه المرابين، وتجاه العالم أجمع..

وأما الأرشدية، فكانت أمراً مفهوماً في الأسرة الواحدة، حين كان الأرشد أميناً على المال الشائع للأسرة، ليتصرف فيه لخير الجميع.. جميع أبناء الأسرة..

وهكذا تصبح الأرشدية السحابية أمراً مفهوماً.. أمراً واضحاً كل الوضوح؛ إنَّ آل سحاب أُسرة واحدة، والكبير أرشدها، فهو المتصرف في مال جميع أبناء سحاب، لمصلحة آل سحاب. الذين يجب أن يكونوا ـ جيمعاً ـ ملاّكاً لكل ما يكسب أي واحد منهم..

كلام جميل ومفهوم.. كلام يدعو إلى النشوة تسري في إحساسات أبناء النجع، والقادمين من الكفور المجاورة.. ويقوم الشيخ من مجلسه.. ويسري نبأ الأرشدية السحابية بين الراقصين والمصفقين والذاكرين والمساطيل..

أما الشيخ محمود وعبد الصمد أفندي وسيد أفندي وعم رياض، فيبدو

أنهم لم يفهموا شيئاً. فنظر بعضهم إلى بعض، وأطرق. وكان قريباً منهما علي وزكريا، ينظر كلّ منهما إلى الآخــر نظرة لا تخلو من عداء. ثم انصرفا تجاه بيت الشيخ عليش.

*. *. *. *

حين عاد الشيخ عليش إلى بيته، كان سعيداً كما اعتاد أهله أن يروه كلما عاد من المولد. فجلس إليهم قليلاً، ثم أوى إلى غرفته التي يتُخذها مجلساً خاصاً، غرفته التي بها التلفون، فاتّكأ على أريكته، وراح يحملق في السقف باسماً، إنه ينتظر أن يحضر إليه بعض أبناء النجع. أن يحضر إليه اثنان بالذات، زكي وعلي.. وابتسم.!

إنه سعيد بحديثه اليوم، لأنه رأى - بنظره البعيد - كيف امتلأت نفوس الناس نشوة لما قال، وفاضت النشوة على وجوههم فرحة. إنه لا يشغل باله بمشاعر القريبين منه الذين يتساءلون ويتخوفون.. ما يعنيه هم «الناس» أبناء النجع حيث هم. هؤلاء سرّهم ما قال.. لا شكّ أنه سرّهم وإن لم يرهم.. فيكفيه سرورهم وسروره هو أيضاً بما قال.. وهمس إلى نفسه: «من الآن سيحتاج إليّ الجميع.. في النجع وخارجه..!».

دخل أحد الخفراء يستأذن لشخصين في الدخول: زكي وعلي..

وابتسم الشيخ، فهذان من كان ينتظرهما الليلة.. ولكن بأيُهما يبدأ..؟

ولم يطل تفكيره، فهو يعلم ما سيقول كل منهما، وما لن يقول.. هو يعلم ما يريد هو ان يقنع كلاً منهما به..! وأذِن لعليّ أن يدخل أولاً. وفوجىء الخفير بتقديمه علياً على زكي. لأنه لا يعلم ما يدور في ذهن سيده.

ودخل عليّ في حبور بادٍ، وإن أخفى ابتسامته توقيراً للشيخ الكبير..

ونظر إليه الشيخ نظرة المقاتل «هات ما عندك وعجِّل..!» وظلّ عليّ واقفاً مكانه لا يجلس، فالشيخ لم يأذن له بالجلوس. وما اعتاد أن يفعل إذا لم يأذن له.

وفي لحظات، مرّت بذهن الشيخ ذكريات هذا الواقف أمامه..؟

كان هذا «الولد» ربيباً لغبور واخوانه في النجع، كم نقل إليه أخباره، وكم روّج في النجع لتجارة ربّ نعمته.. ودارت الأيام، وتولّى الشيخ عليش المشيخة.. واستغلّ صلة عليّ وغيره بالخواجه غبور، وظنّ عليّ يوماً أنه يستقلّ بتمثيل غبور في النجع، ولكن هذا الخواجه الماكر طرده.. وخرج من عنده مغضباً إلى الخواجه صوصة، يعرض عليه أن يعمل لحسابه، ليس من طبع الخواجه صوصة أن يرفض خدمة أحد. وإن أيقن عدم إخلاصه.. فالاخلاص لا يعنيه في سماسرته، ولكن الذي يعنيه قدرتهم على خدمته.. ولم تمض أعوام حتى أصبح عليّ السمسار الأول للخواجه صوصة في النجع والكفور المجاورة. وأفل نجم غيره من السماسرة القدامى.. والشيخ عليش يعلم قصته مع صنيعته.. ويخافه دعاء الاخلاص.. الذي قرّبه إليه، ولكن ما أحبّه قط.. وهل أحبّ الشيخ أحداً بعد أمه غير نفسه..؟!

وقال عليّ بصوت هامس: إنّ حديثك اليوم سيرضي الخواجه صوصة تماماً، ولذلك سأسافر إليه غداً.. إذا أذنت لي..» وسكت لحظة، ثم أردف بصوت أكثر همساً من قبل «هل قصدت بحديث اليوم ارضاءه، هل أوصاك بذلك..؟».

وتفل الشيخ على الأرض كعادته إذا لم يعجبه حديث يسمعه. ثم قال: أنا لا أُرضي أحداً، ولا يوصيني أحد بما أفعل.. اذهب غداً وقابل صاحبك الخواجه، واتفق معه على قرض جديد.. دون شروط..» ثم

خفض صوته وهو يضيف «وليعلم صوصة أنه صديق لي.. ولتعلم أنت أنك ستكون شيخاً للبلد قريباً..». ثم أومأ له أن يخرج..

وخرج عليّ من عند الشيخ سعيداً.. ولعلّه يذكر الجالس في المندرة ينتظر دوره، فحدجه بنظرة من يريد أن يقول دون أن يجرؤ على قولها: «.. صرت أُقدَّم عليك في لقاء الشيخ!».

وطلب الشيخ طعامه، فلما وُضِع أمامه، أَذِنَ لزكي بالدخول.. فدخل ينازعه شعور بالضيق، وشعور بالرهبة.. فوجد الشيخ مستبشراً، يقوم له مرحِّباً، على غير عادته، ويدعوه إلى الطعام.. وجلسا يطعمان، والشيخ يحتفي به ويشغله بالحديث كأنه يصرفه عمَّا جاء ليقول.. وحرص الشيخ أكثر من مرة أن ينبِّه ضيفه وصديق شبابه أنَّ طعامه بسيط.. قلّما تجاوز الخبز والجبن، وأنه هكذا أبداً.

ولما انتهيا من طعامهما، ورفعت «الصينية» بما بقي عليها، وجلس الشيخ.. وبجواره زكي يلف لفافة تبغه التي اعتادها بعد الطعام.. نظر الشيخ إلى زكي متسائلاً:

«خيراً.. ما رأيك فيما قلت اليوم للناس في المولد..؟».

ولم يعتد زكي أن يعارض رأي الشيخ وإن خالفه، فقد علَّمته الأيام كيف ينتقم الكبير ممن يعارضه.. وكم عاونه زكي في هذا الانتقام.. وهو لا يريد اليوم أن يتعرض له، فهو على يقين أن الشيخ سيجد من يعينه عليه، فأجاب مضطرباً «خيراً إن شاء الله.. أنت لا ترى إلا الخير للنجع وأبنائه.. ولكن ألا توافقني أنَّ الخواجه غبور قد لا يرضيه رأيك الجديد..؟ قد يفهمه في خطأ أنك تتبنى آراء الخواجه صوصة التي طالما حاول نشرها في الكفور المجاورة..».

آهٍ منك يا زكي، إني أعرفك من قديم كابر لواحد من وجهاء النجع،

وكنت تستطيع أن تنفق عن سعة إذا ذهبنا إلى البندر.. وعن طريقك عرفت غبور وأمثاله.. وكنت تخفي في نفسك نحوي ازدراء وإن تظاهرت بالتواضع.. كم أكره تواضع الأغنياء وأبناء الوجهاء.. كنت تراني «الطويل الأبله».. كنت تظنني «الأبكم».. وإني أراك دائماً «السمسار» الذي لا يفهم شيئاً.. استفدت منك وسأستفيد كلما أردت بطشاً بالناس وسيقولون أن القساة أنتم أبناء الوجهاء، وسأظلّ أنا - ابن الفقراء - أبتسم في الوجوه، وجوه الأعداء والأصدقاء على السواء..

وابتسم الشيخ وهو يذكر ذلك كله، ثم قال لزكي: «أنا أتأثر بصوصة ودعايته.. أتعلم عني هذا يا زكي إنما أريد أن ازيد الخواجه غبريال ضماناً على ضماناته.. سأصبح أنا المالك الوحيد، كل الملكية باسمي، فلن يحتاج في تحصيل ديونه إلى الجري وراء كل واحد من آل سحاب - أليس هذا أضمن له..؟».

وبدا أن زكي اقتنع بما يقول الشيخ.. عن هذا نمّت أساريره، والله أعلم بما في قلبه..

واستمر الشيخ يقول: اذهب غداً إلى غبريال.. وأفهمه الأمر..!».

وخرج زكي من عند الشيخ وقد فهم لماذا قدّم عليه علياً.. إنه يريد أن يصرفه، وأن يستبقي صديق صباه ليتعشّى معه..

وأوى الشيخ إلى فراشه.. وجلس الخفراء يتهامسون.. تُرى ماذا كان بين الشيخ والنقيضين..؟!

* . * . * . *

ومع الفجر، كانت جلسة بين الشيخ والقريبين من خفرائه ومستشاريه ومنشديه.. فأوضح لهم كيف تنفذ «الأرشدية السحابية» في النجع.. وكيف تصوّر للناس خارجه - إنها فتح جديد، يرفض سيطرة صوصة وغبريال..

ويعم به الخير آل سحاب جميعاً، أولئك الذين طالما ظُلِمُوا، وآن لهم أن ينفضوا الظلم ليعيشوا كراماً..

وعندما أشرقت شمس الصباح، بدأت الاجراءات لتنفيذ الوضع الجديد... ؛

باع كل واحد من أبناء النجع تكليفه من الأطيان إلى الشيخ عليش، وأقرَّ في العقد بقبض الثمن، وإن لم يقبض شيئاً ـ

وأنشئت «التكية السحابية»، واتُّخذت لها مقراً بيتاً من بيوت أحد أبناء النجع الذين تركوه وعاشوا بعيداً عنه..

وبدأ أبناء النجع ـ دون مقابل إذ أجرهم على الله ـ في بناء حظائر الماشية والأغنام التي ستصبح ملكاً للشيخ بعد أن كانت موزَّعة بين الأفراد..

وزيد عدد الخفراء الخصوصيين، وارتفعت أُجورهم.. ونظمت «مجالس الخفراء» ليكون لها كيانها بجوار «مجالس العرب» التي تقلّص اختصاصهم في الفصل في المنازعات بين الناس..

ووضع المنشدون قصصاً جديدة عن الأرشدية السحابية، معناها وفضلها، وكانت هذه القصص تطرب الناس حتى من لا يفهم لها معنى..

وجاء زكي وعلي ورحلتهما إلى البندر يعلنان أن صوصة وغبور راضيان كل الرضى عن الخطوة الجديدة.. ولم تمض شهور حتى كان وجه الشيخ وحال أهله قد بدأت تتطور..

* . * . * . *

[٩]

وبدأ الاستقرار يخيِّم بظلِّه الثقيل على النجع.. فلا جريمة ترتكب - أو يعلم أحد أنها ارتكبت، ولا استغلال من الأغنياء للفقراء، ولا صيحة من أحد تطالب بشيء.. كأن الناس قد حصلوا في النجع على كل ما يريدون من رجاء ونعمة وكرامة.. وحرية أيضاً..

ومع الاستقرار بدأت القروض تنهال على النجع - أو على كبير النجع، من غبربال وإخوانه ومن الخواجه صوصة أيضاً.. ولم يعلم أحد كم بلغت هذه القروض، ولكنها مضمونة بكلمة الشيخ عليش من ناحية، وبأنه المالك الوحيد في النجع من ناحية أُخرى.. وإن كان بعض الناس يشيع أنه رَهَنَ جانباً من أرض النجع، واشترى ببعض القروض أرضاً أُخرى خالصة له وغير مرهونة.. ولكن أحداً لا يدري أصدق من قال ذلك أم كذب.. لأن المغرضين في إشاعة الأكاذيب لا يكفُّون عن الهمس إذا استقرت حال النجع.. وتطورت..

ومن القروض الجديدة عمَّت الاصلاحات النجع، فتمّ تبييض بعض المساكن، وإن ترك الباقي على حاله.. وكان بيت الشيخ عليش مما بقي على حاله، وإن قال المغرضون أنه تمّ تجديده من الداخل.. ولكنهم ولا شكّ كاذبون، لأنّ أحداً منهم لا يعلم ما بداخل منزل كبير النجع..

ثم عبُدت الطريق الرئيسية في النجع، تلك التي يمرُّ بها القادم من خارج القرية إلى بيت الشيخ عليش، مارّاً بالجرن والمسجد.. وإن كانت

مأذنة المسجد قد هوت، ولكن الحالة المالية لم تسمح بإعادة بنائها.. وليس من ذلك ضرر، ما دام المسجد ـ من الداخل ـ صالحاً لإقامة الصلوات الخمس.. والتراويح أيضاً أثناء رمضان..! أما المأذنة، فما الحاجة إليها..؟ يكفي أن يقف المؤذن على سطح المسجد ليؤذن.. وعلى كل فالناس يعلمون مواقيت الصلاة. ويؤدونها فيها.. وأغلب الناس يؤدي صلاته حيث هو، وليس من حاجة لأرشدها إلى المسجد، الذي صار وقفاً على كبار السن يصلّون.. والأطفال يلعبون أو يحفظون القرآن كآبائهم..!

وإذا سار القادم إلى النجع في الطريق الرئيسية الممهدة، الذي اطلقوا عليه «دائر سحاب» بعد أن كان اسمه ـ كما هو الحال في كل قرية ـ «دائر الناحية»، ومرّ بالجرن، بهر نظره ذلك الخزان الكبير الذي أقيم في المركز القبلي من الجرن، يعلو كل بيت في النجع. هذا الخزان الذي أصبح يزوّد النجع كله بماء الشرب، لينقله الناس من الصنبور القائم أسفله إلى منازلهم.. فكفاهم هذا الحاجة إلى الأزيار لترويق الماء مما علق به من طين، فكسر الناس أزيارهم. ثم احتاجوا إليها بعد ذلك حين زادت نسبة الطين في ماء الخزان.. وأصبح لا يزيد نقاءً عن ماء الترعة، كما يقول المغرضون..

في الحقول الخضراء، يعمل فيها الفلاحون والملاك السابقون متساوين، تجاورت أكتافهم.. فازدهرت، وأصبحت ـ في خضرتها وبهائها ـ تسرُّ الناظرين. فإذا كان يوم الحصاد جُمع المحصول كله إلى مخازن الشيخ عليش ـ أو مخازن آل سحاب ـ ليحفظ منها ما يحفظ، ويبيع ما يبيع.. ويقبض الثمن، فيعطي الفلاحين والعمال أُجورهم.. ويعطي الخفراء والكتبة والمنشدين أنصبتهم.. ويأخذ منها كفايته ـ وما أقلّها ـ ثم يسدّد إلى المرابين في البندر بعض الدين، أو بعض فوائده.. ويقول

المغرضون أنّ عمال الشيخ والفلاحين صاروا أكسل مما كانوا عليه.. ولكن الواقع أنّ ساعات العمل خُفِّضت إنصافاً لهم ورعاية لإنسانيتهم، وليجدوا فرصة الرقص والذكر والحديث في الجرن أو المقهى.. ويقول المغرضون أيضاً أنّ المحاصيل قلّت عن ذي قبل.. وليس هذا صحيحاً، إذ لا يعلم حقيقة الإيراد غير أمين عام المخازن الذي يجمع ويطرح ويقسم، ويحسب كل ما دخل المخزن.. وهو يقول إن متوسط الايراد في زيادة، وأن أسعار اليوم لتجار البندر، أقل من ذي قبل كثيراً..

واختفى من النجع المتعطلون، والأعيان والوجهاء.. فهؤلاء لا مجال لهم في نجع يعمل كله كخلية نحل، لا طعام فيه لمن لا ينتج، فكل فرد أصبح فلاحاً أو عاملاً أو خفيراً أو كاتباً، أو أي شيء.. والشيخ عليش يشرف بنفسه على ذلك، بناء على ما يسمعه من المقرَّبين إليه.. وأصبح أبناء النجع جميعاً يأكلون مما يفرضه لهم الكبير من نصيب..

واكتظت الحظائر الجديدة بالماشية والأغنام، ينعم آل سحاب جميعاً بخيراتها، ويباع منها الكثير في البندر لشراء مزيد من الأسمدة والمحاريث القديمة.. فإذا خلت حظيرة لكثرة الاستهلاك حوِّلت منضحاً لحاجة النجع إلى أكثر من منضح يؤسر فيه أعداء التطور الجديد.. أعداء الأرشدية السحابية..

واشترى الشيخ عليش للخفراء لبداً جديدة، ومخازن جديدة.. وأسلحة جديدة أيضاً.. وكانت البنادق الجديدة مدعاة لاستقرار الأمن وخشية اللصوص.. وإن أُشيع أن هؤلاء الخفراء لا يحملون مع أسلحتهم اية ذخيرة، لأن الذخيرة لا يعلم أحد أين هي..! وعلى كلٍّ فهي موجودة، بدليل كثرة إطلاقها في الموالد والأعياد والأفراح.

وانتشر نبأ الاستقرار والتطور في البلاد المجاورة، فزاد عدد المعجبين بالشيخ عليش بين أبنائها.. وزاد عدد الساخطين عليه من عمدها، حتى من

أبدى له المودة، أو تشبّه له في اعماله وأقواله.. فهم جميعاً يشعرون انه يمثّل خطراً عليهم، لأنه يزيد من تفهم رعاياهم للأمور، يكشف عن أخطائهم في أحاديثه الصريحة التي يخاطب بها الناس، ضارباً على أكثر أوتار مشاعرهم حساسية، فيعيش الناس في حلم أمل رائع يمكن أن تحققه سيادة الشيخ على المنطقة كلها.. ويعاون الحشيش على تجسيم هذا الحلم وتصوُّر تحققه.

وكثرت القصص الجديدة يرويها الشعراء على الربابة، فيرضى عنها بعض الناس ويضيق بها البعض الآخر، فيغرقون انفسهم ـ أثناء سماعها ـ في دخان الحشيش الذي ينسيهم همومهم ويوهمهم أنهم يسمعون شيئاً يستحق السماع.

وعرف النجع ـ بدلاً من أغانيه الجماعية القديمة ـ أُغنيات جديدة يغنيها الفلاحون والعمال والتلاميذ، في غدوهم الحقول والمصانع والكتّاب.. وفي رواحهم منها.. بل يغنّيها أحياناً من يؤمّون المسجد للصلاة، وبعد خروجهم منه. فهي أُغنيات تمثّل الواقع الذي يجري في بلدهم فيضمن له الاستقرار والتطور، وتحكي قصة كفاح نحو مستقبل يسعد به أهل النجع جميعاً.. وآل سحاب من أبناء الكفور الأخرى.. ويقول المغرضون أن الكثير من هذه الأناشيد الجماعية الحديثة كان يكتبها الخواجه صوصة، أو أحد موظفيه.. وهو قول واضح الكذب، وإن كان الكثير من سماسرة الخواجه صوصة قد ساهموا في وضع هذه الأناشيد، ولكنهم ـ أياً كانت صلتهم بالخواجه صوصة ـ فهم من أبناء النجع.. ثم إن آخرين من سماسرة الخواجه غبريال وضعوا ذات العدد من الأناشيد.. بل إن الكثير ممن كانوا ذيولاً لمحجوب والمقرّبين إليه، ساهموا في وضع هذه الأناشيد، وفي العمل الجادّ في التكية السحابية أيضاً، والتي أصبحت المركز الحقيقي للإشعاع في المنطقة كلها لمبادىء الأرشدية السحابية الجديدة.

وانتشر الحشيش في النجع انتشاراً لم يسبق له مثيل. . وفرض عليه الشيخ عليش - الذي لا يتعاطاه - أشدّ العقوبات. . وراحت مجالس الخفراء تحكم على من يتاجر فيه - إذا ضبط - أحكاماً بالبقاء في المنضح سنوات طوالاً -. ومع ذلك ظلّ الحشيش يتكاثر في البلد، حتى أشاع المغرضون أنّ الخفراء أنفسهم هم الذين يتاجرون فيه، وأن أحكام الحبس لا تصدر إلاّ على من يحاول الإتجار فيه عن غير طريقهم، أو من يختلف معهم على الأسعار. . وقيل أيضاً أن الخواجه غبور والخواجه صوصة، وأن اللصوص أيضاً هم مصدر تجارة الحشيش في النجع. . وراح الناس يتحدثون عمن يشرف على هذه التجارة داخل النجع، ويعيِّن الخفراء عليها. فلم يتَّهم أحد الشيخ عليش بذلك، وإن اتُّهموا ابن خالته وصديقه وشيخ خفرائه عبد الحميد بذلك. . وأكّد المغرضون أن هذه الشائعة الأخيرة مصدرها الشيخ عليش نفسه قالها لجلسائه. . ! وهل يعقل أن يتهم الشيخ عليش صديقه وقريبه بمثل هذه التهمة الشنيعة، وهل يمكن أن يبقيه رغم ذلك شيخاً للخفراء.

ورغم هذا الاستقرار والتطور في النجع، الأمر الذي كان يؤكده الشيخ والشعراء والناس في أناشيدهم الجماعية، وكان يحسُّه أبناء الكفور المجاورة، فإنَّ شيئاً ما كان يؤرق الشيخ واعوانه. إنهم المغرضون. . والمرجفون في النجع بغير الحق. . الكارهون للاستقرار والتطور. . العاملون على تفريق وحدة البناء السحابي الشامخ. هؤلاء قوم موتورون، وغير معروفين من الناس. هؤلاء قوم يساندهم غور وشركاه مرات، ويؤيدهم الخواجه صوصه أحياناً. . وهؤلاء يشجعهم ويمدّهم بالعون عمد الكفور الذين سخط عليهم أبناؤها واعتبروا الشيخ عليش أرشداً لهم كما هو أرشد نجع سحاب.

ولا شك أن هؤلاء المغرضين. المرجفين الكارهين، سيعملون جهدهم

لتعكير صفو الاستقرار ومنع رفعة التطور.. فهم أعداء وإن حملوا لقب سحاب ـ أو لقب أبي زيد الهلالي ـ فلا بدّ من حربهم.. لا بد من استئصالهم هم ومن يعينهم من عمد الكفور. فكيف يعلم الشيخ عليش هؤلاء الأعداء.. وكيف يستأصلهم.. إنّهم يمثّلون خطراً على الأرشدية السحابية، وعلى أبناء النجع.. وعليه هو شخصياً، من يدري، لعلّهم يفكّرون يوماً في قتله، فإذا فعلوا، انهارت السحابية من ناحية، وفقد حياته هو من ناحية أُخرى.. وهو احرص الناس على حيـاة..

ليس من سبيل إلى تعقّب هؤلاء الأعداء، ومعرفة أخبار اللصوص الذين يقول الشيخ في احاديثه أنهم يمثلون خطراً على الأرشدية السحابية، إلاّ تقوية سلك الكلاب لينتشر لحساب الشيخ في النجع والكفور. والبنـادر ومخابيء اللصوص أيضاً،فهذا خير ضمان للأرشدية السحابيـة أن تسير، ولحياة الشيخ أن تبقى.

وسلك الكلاب سلك معروف في النجع، وفي أنحاء العالم. من زمن بعيد.. ولكنه كان سلكاً ضعيفاً بالنسبة للتطور الذي أصاب النجع. نجع بلغ عدد أبنائه المعلن منه أكثر من ستين الفاً، غير بضعة آلاف نزحوا عنه ـ برضاء الشيخ أو بغير رضائه ـ يعيشوا خارجه طلباً للعلم أو الرزق أو شيئاً آخـر اسموه «الحـرية»، وهم في حقيقتهم كـاذبـون كمـا يؤكـد الشيـخ والمنشدون.. نجع بلغ هذا المبلغ، واصبحت له في البلاد هذه المكانة التي لفتت إليه أنظار الناس جميعاً، لا يجوز أن يظل سلك الكلاب فيه بدائياً.. يجب أن يتطور.. بل أن يسبق في تطوره كل شيء في النجع لأنه رائد التطور والممهد لـــه..

والكلاب قوم من البشر ـ من أبناء النجع وغيرهم ـ يعيشون كما يعيش الناس، ويعملون كأعمالهم، فهم فلاحون أو عمال أو تلاميذ او كتّاب او منشدون، أو خفراء.. ولكنهم لا يؤدون عدة أعمالهم الأصيلـة.، بل

يتسمعون ليعلموا بؤر الفساد وكراهية الأرشدية في النجع وغيره، وينبئون بها رئيسهم الذي يتولى استنطاقها مباشرة أو بعد أن يهمس بالأمر في أُذن الشيخ. . والشيخ يصدِّقه لأنه رئيس الكلاب، والكلاب وفيّة لصاحبها الذي يطعمها. . ويربيها. . ويمنحها حق أن تضمّ من تشاء لحسابه أو لحسابها، دون أن يمسّها أحد بسوء.

كان سلك الكلاب قد تطور فعلاً على عهد الشيخ عليش، ولكنه في حاجة إلى مزيد من تطوير. . ولا مانع أن ينضمّ إليه بعض اللصوص المحترمين من أبناء النجع والكفور. . وجاء الشيخ بخفير سابق يدعى «نصيراً» ليكون رئيساً جديداً لسلك الكلاب، وقد أُشيع أنّ الذي رشّحه هو عبد الحميد، قريب الشيخ وحبيبه، ولكن ليس المهم الترشيح، بل المهم أن يقع اختيار الشيخ على المرشح له أو . . . عداه. . .

و«نصير» كان كلباً للشيخ - أو لعبد الحميد كما يشاع - في بندر من البنادر، وكان ذكياً وفياً لسيده، عقوراً لخصومه. . كانت فيه صفات الكلاب. . وهكذا غدا رئيساً للكلاب، وإن أشاع البعض أن الشيخ كان يضع عليه عيوناً تراقبه، وتتحسس أخباره. .

* . * . * . * . *

[١٠]

كان «نصير» يجلس ليله ونهاره على الدكة الخشبية في المنزل الذي اتُّخذه مقراً لعمله، وهو منزل لا يكاد يختلف كثيراً عن بيوت النجع التقليدية، التي لم تمسَّها يد الاصلاح منذ عهد بعيد. هذا هو البيت الذي رضيه الشيخ عليش مقراً لنصير. وهو يختار لأعوانه ـ كما يختار لنفسه ـ المتواضع من البيوت والثياب والطعام؛ فالمال مال آل سحاب، ولا يجوز أن ينال منه من يعملون لآل سحاب إلاّ ما يكفيهم. إنه يبخل على نفسه وأعوانه، ولكنه لا يبخل على العمل بشيء.

و«نصير» رجل طموح حريص دؤوب في عمله. كان يعيش في سعة أيام عمله في البندر، فلما عاد إلى النجع ليتولى مهمته الجديدة، أطرح سعة العيش واكتفى ـ كسيده ـ بالعيش المتواضع، شأن كل عامل مخلص لمصلحة المجموع.

ولم يكن «نصير» بالحديث عهد بعمله، فقد مارسه من قبل في أكثر من ناحية وعلى أكثر من نحو. وهو قد تعلَّم كيف يطوِّره ويجعله عملاً مجدياً للشيخ والسحابية. وله أيضاً. ولكن ذكاءه يدعوه إلى الحرص في أول الأمر، ليعلم ماله وما عليه، وطموحه يدعوه إلى تصوُّر عمل ضخم لا يجوز أن يبقى كما كان في الماضي، ولا حتى نحو الحاضر القريب، حين كان يتولاه غيره، فيديره إدارة الغر الذي يظن أن القسوة وحدها هي سبيل حكم الناس، ومعرفة أسرارهم وما يضمرون. لا، إن القسوة واجبة لتكون

الهيبة، ولكن لا بد قبل ذلك ايجاد الفرقة بين الناس والطمع عند العاملين في السلك.. لا بدَّ من تحطيم كل شيء يمكن أن ينسب إلى الخُلُق أو يتمسك به، فالخُلُق يكره هذا العمل ويأباه.. لا، بل لا بدّ من شيء آخر، أن ينعزل الكبار عن معرفة أخبار الناس إلاّ خلال قنوات سلك الكلاب.. فالكبـــار قـــد يغريهم الضعف الإنساني فيرحموا بعض الناس، أو يرفعوا بعض الظلم عنهم.. وما دام الكبار بعيدين عن الصورة الحقيقية، فلن تهزّهم مآسي الناس، بل ستهزهم الأخبار التي تصلهم والتي تجعلهم دائماً في خوف من الناس. والخوف يولِّد الكراهية، وإذا كره الكبار الصغار لم يرحموهم، وبادلهم الصغار كرهاً بكره. وهذا هو المناخ المناسب لتعيش فيه الكلاب أحسن ما يكون العيش، مناخ الخوف والريبة بين الكبار والصغار.

وعلى ضوء ذكائه وخبرته السابقة وطموحه، بدأ «نصير» يهيء المناخ المناسب، ليكون في النجع شيئاً مهيباً. مهيباً في أعين الناس مهما ذلّ للشيخ تارة، ولعبد الحميد شيخ لخفراء تارة أُخرى.. وللشيطان دائماً.

وزاد صلته بعبد الحميد توثيقاً، فقد كانت وثيقة من عهد بعيد.. وهو أعلم الناس كيف يحافظ عليها ويزيدهـا، ويضمن تأييده له في كل الظروف..

وبدأ يمهد لصلة خاصة بالشيخ، وهو يعلم أنَّ الشيخ لا يغريه مال ولا خمر ولا نساء.. ولكنه يغريه أن يعلم عن الناس كل شيء: أسرارهم، وفضائحهم.. ونكاتهم أيضاً.. فالشيخ ـ مهما زادت مشاغله وعلا قدره ـ مرح يفهم الدعابة ويستسيغها، شأنه في ذلك شأن أهل النجع جميعاً، وقلما استطاع ـ أو جرؤ ـ أعوانه أن ينقلوا إليه نكات الناس التي يتناقلونها، فبدأ «نصير» بهذا المجال، وما أيسره من مجال، وما أشدّه تأثيراً على الشيخ، فهو يروِّح عنه، ويعلم منه مدى حبّ الناس له وتقبُّلهم لأعماله. ومن هذا المنطلق ـ جمع النكات والفكاهات ـ بدأ «نصير» عمله، فجمع الكثير منها،

واستأجر له من يبتكر له الكثير الآخر.. ولم يكن جمع الفكاهات في النجع أمراً عسيراً، فإن أي جالس في المقهى أو الجرن، وأي عامل في المصنع أو الحقل، وأي زائر لواحد من أبناء النجع في بيته يستطيع أن يهمس منها الكثير.. فأبناء النجع ذوو دعابة، يعبِّرون بالنكتة عن فرحتهم، ويفرِّجون بالنكتة عن أحزانهم، وينقدون بالنكت ما لا يرضيهم.

لم يكن العمل المتواضع الذي قام به «نصير» مجرد جمع النكات، ولكن كان تبويبها إلى عوامل زمنية، وموضوعات.. وإلقاء بعضها أحياناً على الشيخ بأسلوب شيِّق يضحك ضحكاً شديداً، أو بأسلوب حاقد مؤلم يؤذيه ويفزعه.. ويتركه بعد ذلك يبيت ليلته مرحاً أو أن يقضي ليله مؤرقاً ساهراً من سوء الدعابة التي أصابت فيه أمراً عزيزاً عليه،يؤلمه أن يعبث به الناس.

«ليست هذه النكات بنت ساعتها، إنها تخطيط من قوم ساخطين ينشرون بها فكرة أو قصة لكم ليشكلوا نوعاً من المقاومة ضدك..!» قال «نصير» ذات مساء لشيخه، ثم راح يعرض عليه أصنافاً من النكات اللاذعة.. من النوع الذي يؤذيه..

واستدعي «نصير» في الصباح إلى دار الشيخ الذي لقيه بادي الإرهاق من طول السهر.. وبادره الشيخ قائلاً «تعقّب الساخطين الرافضين.. لك مطلق السلطة في هذه السبيل..!».

وردّ عليه نصير بهدوء «افعل.. يا كبير.. ولكن هل تعلم أن جذور السخط والرفض كامنة في النجع.. وتموَّل من الخارج.. فهل لي من مزيد من الأعوان أبثهم النجع وغيره..؟».

ـ لك هذا..

ـ وهل لي من دار أُخرى يستقرُّ فيها جهازي..؟

ـ لك هذا أيضـاً. .

ـ وهل لي أن أجلب من البندر بعض الوسائل الحديثة لمعرفة خبايا النفس، وكشف الصادق من الكاذب؟

ـ لـــك. . .

وشكر «نصير» شيخه واستأذن. . ثم عاد من باب الغرفة يقول متمتماً:

ـ أخشى أن تزيد النفقات. . وأنا لا أُريد إسرافاً من مال آل سحاب.

ـ مال آل سحاب كله مبذول لمنع الخطر عنهم. .

وخرج «نصير» مستبشراً. . ليبدأ على الفور في توسيع نطاق أعماله. .

لم يتردد «نصير» طويلاً وهو يفكِّر بم يبدأ. المبنى الضخم الرهيب أم الأعوان المخلصين. . فقرر البدء بهما معاً. .

ولم يتردد كذلك وهو يفكر بم يبدأ. . بالعمل في الداخل أم بالعمل في الخارج. . فقرر البدء بهما معاً. .

وكذلك فعل في تمديد مجال عمله في الداخل، ومجال عمله في الخارج. . وفي تمديد سلاحه لتهيئة مناخ أعماله بالمال أم النساء أم الخمر. . فبدأ بها كلها. إنْ له من الطاقة على العمل ما لسيده وشيخه، وإن كان هو مشهوراً من قديم بالانحلال الخلقي على عكس شيخه تماماً، وشيخه يعلم ذلك، ولكنه لا يكره انحلال كبير كلابه ما دام يضمن قدرته على العمل وإخلاصه فيه. إن الانحلال والضعف الخلقي في الأعوان أمر لا يزعج الشيخ إطلاقاً، بل هو يراه مبرراً لتعاليه على أعوانه، وذلة يسحق بها هؤلاء الأعوان إن حاولوا يوماً أن ينقلبوا عليه. وإذا استنفد هو أغراضه منهم وأراد أن يستبدل غيرهم بهم.

وقد أعان الانحراف الخلقي نصيراً عوناً كبيراً في أُسلوب عمله وفي اختيار أعوانه. . فإنه لن يقف في عمله عند حد يأباه الخلق أو يستنكره

الدّين، أو ترفضه تقاليد النجع. إن أسلوبه سيكون أُسلوباً مرناً غير محدود في مرونته وفي مداه. . المهم أن يحقق الغاية منه: معرفة أسرار الناس، إن صدقاً أو كذباً، ومؤاخذتهم على هذه الأسرار، أو تسخيرهم بها لحساب السلك. . أي النظام. . أو الشيخ، فقد اختلطت كلها، في تصور «نصير» الطموح. .

لم يمض طويل وقت حتى كان «نصير» قد أقام بناء جديداً له، وكانت له به أكثر من غرفة خاصة لا يدخلها أحد إلّا بإذنه، وكان له في كل منها أكثر من أريكة من القطن مريحة أو فراش وثير. . والحق بالمقر المنضح الشهير، بل أكثر من منضح آخر حين خلت بعض حظائر آل سحاب من الماشية، فحوّل نصير ما يخلو منها إلى «منضح» يحبس فيه من يرى خيراً في حبسه: خيراً لنفسه، أو لأحد الكلاب، أو للتحقيق في قضية. . وعلى كل حال لمصلحة الشيخ وارشديته. .

وقسّم النجع إلى مناطق، السفح، والشمال والجنوب والغرب والوسط. . ووزّع اختصاص البحث عن الأخبار لكل من هذه المناطق لمجموعة من الكلاب. واقتضت المصلحة ـ بجوار تقسيم النجع إلى مناطق، تقسيم أبنائه إلى طوائف، فهناك طائفة الملاك السابقين، وطائفة التلاميذ، وطائفة الفلاحين، والكلافين والعمال والموظفين والغرباء في البلاد الأخرى. . وعهد بكل طائفة من هذه الطوائف إلى مجموعة من أعوان نصير. ولم يكف هذان التقسيمان في تمزيق النجع، فأضيف تقسيم آخر، فقسّم أبناء النجع حسب أفكارهم الخاصة التي تبدو من تصرفاتهم وآرائهم، وإلا افترضت افتراضاً. . ! فالناس في النجع ينقسمون إلى متعاونين وغير متعاونين، والتعاونيون يتعاونون مع شيخ النجع عن رهبة. أو عن مصلحة. . ولا أحد سيتعاون ـ في نظر نصير ـ عن اقتناع غيره هو شخصياً. وغير المتعاونين هم أعداء أو صامتون. . والصامتون لا خوف منهم ولكنهم كفئة

كبيـرة ستفيـد نصيراً بأن يغذي منها طائفة التعاونيين أو طائفة الأعداء كلما احتاج إلى زيادة حجم واحد منهما.

وفي مجال الأعداء غير المتعاونين ـ تفنّنت أجهزة نصير في تقسيمهم، وحصر أنواعهم حصراً لا يمنع من أن يخـرج بعضهم من قسم إلى قسم، وأن يوجد اسمه في أكثر من قسم وإن تعارضت الأقسام. المهم أن يلتقي الجميع في أنهم أعداء، يباح منهم ما كان يباح عن الأعداء في العصور الغابرة، فأرواحهم وأموالهم وأعراضهم وسمعتهم حلال للكلاب تنهش فيها كما تشاء..

ولم تنج الكفور المجاورة من هذه التقسيمات، فهذا كفر مهادن، وهذا كفر صامت، وهذا كفر معادٍ. ولا كفر موالٍ على الاطلاق.. وإلا أصبح عمل الكلاب فيه غير ذي موضوع. وقد يكون الكفر معادياً ومهادناً في وقت واحد. لأن التقسيم انسحب إلى عمدته وأعيانه وفلاحيـه..

وكـان لا بد أن يشمـل عمل سلك الكـلاب أيضاً الغجـر الرّحـل (اللصوص). يتعقبون آثارهم ويعلمون أخبارهم، ويأتون بها إلى الشيخ، وينشرونها بين الناس بالهمس تارة، وبانشاد المنشدين تارة أخرى. وقد اقتضى اتقان هذا العمل استخدام أكثر من واحد من اللصوص، ولكن الأمر الذي يحسه أبناء النجع ـ وعلّق عليه المغرضون ـ أن أخبار اللصوص باتت دائماً أخباراً سارة للشيخ وللناس.. كانت أخباراً على هواهم. فالغجر متفرقون ضعاف، يخشون سطوة الشيخ وآل سحـاب جميعاً، ويبحثون لأنفسهم عن ملجأ يلجأون إليه بعيداً عن الشيخ القادر على سحقهم في أي وقت يريد.

وقد كان «نصير» واثقاً في طريقته الجديدة في اختيار كلابه.. أو كلاب الشيخ كما يسميهم. فقد بدأ باختيار كل حقود ضعيف النفس راغباً في الاستعلاء الكاذب، ومنهم كوّن نواة سلكه. ثم بدأ يتخير كل ذكي أو قادر

على العمل، فيقرّبه بالمال.. أو النساء أو الخمر.. أو الحشيش، ليكون له عميلاً.. فإن أياسه ذلك منه، أوقعه في ورطة مهلكة ثم نجّاه منها.. وتكون نجاته ثمناً كافياً للعمل معه.. وإلاّ فمجان المنضح يتسع له ولبعض أهله.. والجوع والتشريد يملكه نصير، وإلاّ مكانه في المنضح أو الجوع أو التشريد إلا أن تخضع لرغبات الكلاب.. وان تكون كلباً للشيخ، ويكون الشيخ شيخاً في أعين الناس وإن كان كلباً في عين نفسه..

وكان نصير يعرض ـ بأمانة الكلب ـ على الشيخ أحوال الناس كما رآها السلك بأجهزته المختلفة، أو حسبما يراها هو.. وأحياناً حسبما يريد أن يراها الشيخ. فاطمأنت نفس الشيخ رضاً بهذا، فزاد من سلطة السلك الذي أمّن حياته ورفع شأنه، وجعل الناس كلهم له تابعاً، أو منه خائفاً.. حتى العمد في دورهم النائية بقراهم.. يحسبون له ألف حساب في تصرفاتهم وأحاديثهم وهمسهم..

وإذا بكلاب النجع تملك في يدها حرية الناس، ورزقهم الحلال والحرام، وأعراضهم وسمعتهم.. بل وحياتهم أيضاً.

إنّ كل من لا ترضى عنه الكلاب سيدخل المنضح ولا يخرج منه إلا برضاها..

إن كل مقيم بالنجع لن يجد عملاً ولن يجري عليه رزقه من مال آل سحاب إلاّ إذا رضيت الكلاب وبمقدار ما ترضى...

إن كل راغب في أن يترك النجع طلباً لعلم او رزق أو علاج لن يبرحه إلا إذا أذنت له الكلاب.

إن الكلاب تملك وحدها أن تقول في عرض إنسان ما تقول ـ ولو بغير دليل ـ فيكون الحق ما قالت، وعلى الناس أن يصدّقوه، وعلى الشعراء أن يردّدوه..

وأصاب الشيخ الهم الشديد. فالكلاب تعمل كل سوء.. والكلاب منتشرة في زي أبناء النجع في كل مكان.. والناس يخشونها.. ولا ملاذ منها إلاّ اللجوء إلى الشيخ يردُّ عن الناس أذاها.. واتجهت الأنظار صوب بيت الكبير، تلتمس منه خلاصاً..

وإذا بيت الكبير زاد علواً، وقلّ قاصدوه..

وإذا الكبير قد زاد كبراً، فلا يراه أحد إلاّ ماراً بالكلاب أو رئيسهم..

وإذا الشيخ عليش الطيب القلب، ابن النجع، الذي كان الناس يحبونه ويأملون فيه.. إذا به قد احتجب، وغدا «أسطورة».. أو غدا صنماً يعبده الناس ولكنه لا يسمع تضرعهم ولا يجيب عليهم إلا خلال آذانه ولسانه الجدد، التي تسمعه ما تريد وتقول عنه للناس ما تريد..

وزاد ضيق الناس بحالهم.. وزاد عدد الراغبين في النزوح عن النجع.. وتزايدت مع ذلك الأناشيد الجماعية التي يغنيها العمال والفلاحون والتلاميذ،تشيد بالشيخ ومآثره، وتصف النعيم الذي يعيشون فيه..! ويتبارى الشعراء من النجع وخارجه تبيين مزايا «الأرشدية السحابية» وما تعنيه للناس من رفعة شأن وكرامة..

وتنفّس المرابيان الكبيران رضاً بما يجري، وهدأت نفس «الغجر الرّحل» حين رأوا أمامهم كفراً يضيق به أهله.. وكفوراً حوله يناصره علناً ويبطن له البغضاء بعد ما كانت تحمل له ولأبنائه قبل من حب وتقدير.

ونسي الشيخ نجعه وأبناءه، فأمْرُهُم موكولٌ إلى يد أمينة، والتفت إلى الكفور المجاورة، يقابل هذا ثُمّ يسبّه إذا غادر، ويرفض استقبال ذاك ويمدحه إن أصرّ على زيارة النجع لمقابلة كبيره.. كبير آل سحاب جميعاً وإن اختلفت كفورهم وقراهم..

وعلا إنشاد الشعراء لقصة «الأرشدية السحابية».. والناس عن سماعها غافلــون...

وخفتت أناشيد أُخرى عن المأذنة المهدمة، والناس إليهـا ينصتون، يتعقبون الهامسين بها لعلها تشفي بعض غيظ نفوسهم . .

الشيخ كبيـر لا يحكم . . والناس كلهم صغير تتحكم فيهم حاجتهم إلى الحرية والحب ونشر الخير . والكلاب بين ذلك وهؤلاء يحرِّضون . .

* . * . * . *

[١١]

إنّ في الجبل لأبناء النجع لرزقاً.. وأهل النجع اعتادوا أن يرتادوا الجبل جماعات وآحاداً يجلبون هذا الرزق؛ ملحٌ حجريٍ وروث خفاش، يبيعونه فيكسبون مقابل ما بذلوا من جهد ونضحوا من عرق، وهم يسعون في الجبل وكهوفه بحثاً عن هذا الرزق.. ويذكر أهل النجع أن بعضهم يسعى إلى هذا الرزق منذ عرف النجع مكانه في حضن الجبل، ولكن واحداً من «سلك الكلاب» عنّ له يوماً أن يعترض أحد الساعين إلى هذا الرزق؛ كان هذا الساعي إلى الجبل رجلاً كبير السن، لا يعلم له مهنة في الدنيا إلا البحث عن الرزق المغيَّب ببطن الجبل، فعلم ذلك عن أبيه وجدِّه، وظلّ يعمل فيه منذ وعى إلى يومه هذا الذي لقيه فيه «كلب» يمنعه عنوة أن يذهب إلى الجبل ساعياً لرزقه.

وتصوّر العجوز حال عياله وجوعهم، وتأمّل كيف سيكون حالهم لو عاد إلى بيته لم يُحضر شيئاً.. ولو مُنِعَ من ذلك مستقبلاً.. فهاله ما تصوّر، إذ لا رزق يجري عليه ـ وهو من آل سحاب ـ لأن العمدة وأعوانه راوا أنه يكفيه وأمثاله ما يجلبون من الجبل من رزق.. وانقلب هول تصوُّرِهِ رفضاً لأمر الكلب. فسخط الكلب أن لا يطاع، فأوسع العجوز ضرباً، وتجمّع الناس.. علموا الخبر، فراح كل واحد من روّاد الجبل يتصوُّر حاله، وما سيئول إليه إن منعه من ارتياد الجبل، فتجمعوا حول الكلب الذي أطلق عليهم أعيرة نارية قتلت واحداً منهم، فانهالوا عليه بالحجارة حتى أصابوا منه مقتلاً..

وَنُقِلَ الخبر إلى «نصير» الذي قال «تجمُّع بتمرُّد على الشيخ.. لهم الويل..!» أذاقهم الويل فعلاً، جميع رواد الجبل، فأدّبهم تأديباً لم يروه من قبل، قتل منهم من قتل، وأسر في المنضح من أسر، وشرّد منهم من البلد من شرّد، وهدمت بعض بيوتهم.. ثم تقرر أن يكون ما في الجبل من رزق ملكاً لآل سحاب جميعاً، على رواد الجبل أن يسعوا لجلبه، ويسلمونه إلى مخازن الشيخ التي يشرف عليها أحد أعوان نصير.. ثم يجري على كل واحد من رواد الجبل رزق يوازي نصف سعر ما يجلب من رزق، حسبما يقدّره أمين المخازن.. وزاد الثقة بين هؤلاء.. وقلّ الرزق الوارد من الجبل.. ولا يعلم أحد سبباً لشحّ الجبل الذي كان دائماً كريماً..!

ولم تمض أيام، حتى ذهب أحد الكلاب يستدعي إلى مقر السلك رجلاً من جنوب النجع فلم يجده، فأراد أن يصحب زوجته معه ليضطر الجيران إلى إرساله فوراً.. ولم يكن النجع في يوم من الأيام قد اعتاد مثل هذا التصرُّف، وما كان له أن يسيغه، فتجمّع الجيران، ومنعوا الكلب من أخذ المرأة عنده.. وتطايرت بعض أحجار صلبة فأصابت رأسه فأدمتها..

ونقل الخبر إلى «نصير» فهمهم قائلاً: «تجمُّع آخر يتمرد على الشيخ.. لهم الويل....!» وأنفذ وعيده ودفع الحي ثمناً غالياً لتلك القطرات من دم الكلب.. دفعوا أكثر من قتيل، وأكثر من جريح، وتخريباً لدورهم، وإحراقاً لنباتهم.. وضرباً لنسائهم في الطرقات.. وتقرر أنَّ من حقِّ السلك أن يدخل المنضح أية امرأة يشاء، وما كان للنجع عهد بهذا، حتى في أظلم فترات حياته..!

ولم تمض أيام أخرى حتى مات الشيخ مصطفى..! وما كان هذا الخبر ليثير اهتماماً في النجع بعد أن نسي الناس الشيخ مصطفى الذي كان ذات يوم شيخاً للبلد، وكان بيته مقصداً لأبناء النجع والكفور المجاورة، والذي رفض أن يحني رأسه للشيخ عليش، ولزم بيته ثلاثة عشر سنة لا يبرحه، ولا

يدري احد أتعشّى قبل نومه أم نام جائعاً. . فما كان الشيخ عليش يجري عليه إلاّ الكفاف أو دونه مما يملك آل سحاب.

مات الشيخ مصطفى بعد عمل طويل شاقّ. . وما هزّ مونه احداً إلاّ قلّة من أبناء النجع كانت تعرفه، ولا تزال تذكره. . أما البقية فقد نسيته أو أُنسيت أياه حين شغلها ضيق الحال والسخط عمن يموت أو يعيش. . ولذلك لم يحسب سلك الكلاب لموت الشيخ مصطفى حساباً، فكم مات قبله، وكم سيموت بعده، و«القرافة» تسع أمواتاً بعد أموات يتكدسون.

ولكن الناس يروون أن النعش حين توجه من زاوية في طرف النجع نحو المدفن طـار. . طار يجـرُّ وراءه حملته والمشيعين. . وظـلّ يطوف بالنجع، حتى بلغ المسجد الكبير فدخله، وأعاد النـاس الصلاة عليـه، وخرجوا به، فإذا به يعاود ما فعل من قبل. والناس وراءه يَعْدُون، ويهلّلون، ويكبُرون. . حتى تجمّع كثير من أبناء النجع وراء النعش، يرون بركة الشيخ مصطفى. . ويتخيلون حالهم أيامه. . وحالهم هذه الأيام. .

وهنا تدخّل «نصيره» برجاله، ومعهم كثير من الخفراء. . فهذا ـ على حدّ قوله ـ دليل ساطع على تمرد كبيـر ضد الشيخ. . . ! فُرّقت الجنازة، ودفن الجثمان على عجل، ومنع المأتم. . وبدأ التفكير فيما يجب أن يكون عليه الأمـر. .

وفي جلسـات عند الشيـخ راحوا يفكّـرون. . لماذا؟ وكيف، ومـاذا فعل. .؟ ويقول المغرضون أن ممثلين عن صوصة وغبريال شاركا في هذه الاجتماعات، أو أن المرابيين الكبيرين قد استشيرا في الأمر قبل ابرامه، فلهما من العيون في كل مكان ما يجعل معلوماتهما ذات وزن في كل الأحداث. . ! وعلى كل، يؤكد الناس أن صابر وزكي حضرا الاجتماع، ومعهم رئيس الكلاب وبعض أعوانه. . ورئيس المنشدين وبعض أعوانه. . !

كان من بين الساخطين - أو الأعداء كما تسميهم الكلاب - أناس من عملاء غبريال القدامى، وأُناس من عملاء صوصة القدامى، وأناس من أنصار الشيخ مصطفى، وأكثرية ضاقت بحالها وخافت قتامة مستقبلها فعبُرت عن ضيقها وخوفها بالسخط تارة وبالرفض تارة أُخرى...

ولكن هل يكفي أن تقبض على البعض من هذه الصفوف من الناس وينتهي الأمر عند ذلك..؟ لا.. فالشيخ يعلم، ومستشاروه يعلمون، أن للأمر جذوراً يجب استئصالها. ولو أن الشيخ كان على صلة بأبناء نجعه، وكان يلقى منهم من يستطيع أن يقول له الحق، لعلم أن السخط والرفض سببهما الضيق الذي يعيش فيه الناس، أو الخوف الدائم من الكلاب وما يفعلونه باسم الشيخ. سواء علم هو بذلك أو لم يعلم به.. ولكن الشيخ كان قد علاواعتكف، فلا يسمع إلى أبناء نجعه الذين عرفهم قديماً وعرفوه حين كان ساخطاً ورافضاً.. وحين كان يحاول أن يفعل شيئاً لأبناء نجعه.. الشيخ صار شخصاً آخر، صار بالنسبة لشعور النجع صنماً يتحدث عنه غيره ويفكّر له غيره.. وهو مشغول بشيء أكبر من ذلك النجع كثيراً.. وللأسف لم يكن له أمام هذا السخط الداخلي إلا أن يستمع إلى مستشاريه، ويردِّد ما يقولون، اقتنع، أو لم يقتنع، ما دام يوافق هذه، ويستطيع به أن يصور سبباً للداء، الذي أصاب بلده الهادىء المطمئن..

إنّ أنشودة المأذنة المهدَّمة.. تلك الأنشودة التي استهوت قلوب الناس، فأقبلوا عليها يسمعونها حيثما وجدوا لذلك مجالاً.. إنها قصة قديمة يعرفها النجع، ينساها حيناً، ويعود إليها كلما ضاقت به الحال.. إنها أشبه شيء عند النجع «بالله» الذي يذكره الناس في ضيقهم، فإذا زال الضيق ينساه الكثيرون..

هذه الأنشودة هي سبب البلاء.. فالكل يستمع إليها هذه الأيام، حتى أُولئك الذين ما كان لهم بالمسجد صلة طول حياتهم الماضية.. وهذه الأنشودة لا يمكن أن تتردد إلّا بين أبناء الشيخ حسن وأنصاره، ومنهم تنتشر

بين الناس.. فليكن استئصال جديد لهؤلاء، ومعهم يمكن أن تستأصل من تشاء من أبناء النجع..

بهذا أُوحي إلى الشيخ.. وبهذا تحدّث الشيخ يوماً..

وذات مساء استقبل المنضح الكبيـر الشيخ حسن، الذي كان قد لزم داره سنين طويلة منذ غادر المنضح آخر مـرة.. ودخل المنضح معه ألف وثمانمائة من أبناء النجع.. ثم تضاعف العدد إلى ثلاثة أمثاله في أسبوع واحد.. وانعقدت مجالس الخفراء للنظر في أمر من يحيله إليهـا سلك الكلاب، بعد أن استُبعدت مجالس العرب من نظر هذه القضايا. وحكمت مجالس الخفراء على الكثير بالبقاء في المنضح آجالاً لم يحدّدوها وتُرِك أمر التنفيذ لسلك الكلاب الذي أبقى الجميع من حكم عليه ومن لم يُحكم.. ولم يأذن بخروج إلاّ من يريد هو إخراجه.. وقيل يومذاك أن هؤلاء باقون في المنضح حتى الموت..

وهكذا استقرت الأحوال فيما تقول الكلاب.. وفعلت الأنشودة الحزينة التي طالما واست الناس، وبعثت في قلوبهم أملاً...

ولكن الأنشـودة ظلّت تتردد داخـل المنضـح، وخـارج النجـع حيث الغرباء.. وعـاد الناس يـذكرون المـأذنة المهـدمة حيث يـرونها أو حين يتصورونها على البعد، وعادوا يذكرون الشيخ الوقور الذي لم يغيِّر طول الأسر من حاله شيئاً..

*. *. *. *

وقال الشيخ يخاطب نفسه وهو يجلس وحده في جوف الليل «الآن قتلت الأنشودة اللعينة.. وفرغت لشيء أكبـر...!» وما درى الشيخ أنه أخطأ، فما قتل إلاّ نفسه ونجعه وآل سحاب جميعاً...

إنّ الأنشودة الحزينة كلمة صارت تخاطب النور. والكلمة لا يفنيها ذبح مردّديها ولا أسرهم مهما طال. سيموت من يموت.. ويبقى في الأسر

من بغي، وتنطلق الكلمة حرة تراود كل مؤمن بها.. كل راغب في البناء من كل كاره للهدم..

وانطلقت الأنشودة الحزينة في القرى والمدن، يرددها الناس، من كان منهم من قبل من أنصار الشيخ حسن ومن لم يكن من أنصاره، بل ومن كان يوماً من أعدائه يرى فيه انتكاساً لأبناء الناحية.. أصبح هؤلاء جميعاً يبكون أية مأذنة مهدمة، وأي صومعة مهدمة، وأي بيعة مهدمة. أصبح هؤلاء جميعاً يرون شبحاً مخيفاً قادماً على آل سحاب، لا مردّ له إلاّ بالمآذن والبيع والصوامع، منها تعود للناس في هذه البلدان حقيقتهم الأصيلة، التي ترفض الظلم، وتأبى أن يعبث بها وبمقوماتها عابث..

ومع ذلك ظلّ الشيخ عليش محبوباً من أغلب أبناء المنطقة المنتمين إلى سحاب - حقاً أو ادّعاء - فهو عندهم يمثل أمل المستقبل، لا يغيِّر من ذلك أن رجاله حاربوا الأنشودة الحزينة، وأن أبناء نجعه صاروا يبحثون عن مكان يعيشون فيه بعيداً عن نجعهم الذي خيّم عليه صمت رهيب. صمت ينذر بعاصفة تهبّ عليه، أو بركان ينفجر فيه.. وكانت العاصفة أقرب لأن أيادي كثيـرة كانت تدفعها دون أن يعلم أبناء النجع.. ودون أن يعلم الشيخ الكبيـر.

[١٢]

كان الشيخ عليش يجلس وحده ـ كما اعتاد في تلك الأيام ـ يفكر ويهمس لنفسه بما يريد.. «فرغت الآن لشيء أكبر.. سأوقع بين المرابيين، ثم أتخلص أنا منهما معاً..!»

وجلس غبريال مع شركائه في مكتبه بالبندر يستمع إليهم، ثم يقول «اينعت.. وآن لنا أن نقطفها..!»

وجلس صوصة مع موظفيه في مكتبه بالبندر ليقول لهم: «تورّط صاحبكم، وآن أن نغرقه وقومه..!»

وجلس شيخ الغجر مع كبار قومه في بيته الذي اتخذه بعد ارتحال طال، وكانوا يتحدثون جادّين، فاستمع إليهم وقال: «غبريال وصوصه معنا.. وقريتنا آن لها أن تكبر وتستقر.. وليس أمامنا إلاّ عناء..!».

وكان أبناء النجع والقرى المجاورة يحلمون.. فالأوشدية السحابية حلم كبير.. والأحلام لا يحققها النوم أبداً.. ولكن هؤلاء شقّت عليهم يقظتهم، فآثروا النوم..!

* . * . * . *

أما أسرى المنضح والغرباء.. من أبناء النجع والقرى المحاورة.. الذين فروا بأنشودتهم الجديدة وكلمتهم الصادقة، فكانوا يحاولون أن يفعلوا شيئاً لأرضهم وأهلهم فلا يستطيعون.. فارتفعت أصواتهم بأنشودتهم،

يحذّرون الناس الطوفان.. وقليلٌ من يسمع.. وأقلّ منهم من يجيب.. فالشيخ عليش رمز الحلم، يكفي أن يظلّ هو يقظاً، فيتحقق الحلم على يديه وحده.. هكذا قال المنشدون.. وهكذا صدّق الناس.. ووجب عليهم أن يصدّقوا؛ سيطرد الشيخ اللصوص من المديرية، وسيرد كيد صوصه وغبريال إلى نحريهما بعد أن يوقع بينهما..!

* . * . * . *

وأصبح الناس يوماً ليشهدوا عجباً؛ مقدّمة تحقيق الحلم الكبير...

لقد خرج جمع من خفراء النجع، وسدّوا طريقاً يصل «كفر الغجر» ببعض القرى.. وأجلوا عن الطريق عساكر المركز الذي كان المأمور قد وضعهم برضاء الشيخ منذ سنوات..

إذاً هو القتال قد آن.. والحلم بدا كحقيقة قريبة.. حلم آل سحاب من قديم أن لا يشركهم الغجر مقاماً مستقراً في بلد يحمل اسمهم.. مستقراً في بلد نزعوا ملكيته من أصحابه فأصبح الملاك القدامى رُحّلاً واستقر الغجر الرحل بعد طول ارتحال.

والغجر ـ وإن أسماهم آل سحاب اللصوص ـ يحسبون أنهم أصحاب حقّ في الاستقرار حيث هم، وفي الاتصال بمن حولهم، ولن يسمحوا لأحد أن يعرّض حقهم لخطر، إنهم يجدون في حقّهم هذا تأييداً من المديرية والمركز والنقطة ـ وإن سحبوا عساكرهم ـ ويجدون تأييداً أكبراً ـ ظاهراً أو مخفياً من الخواجه غبريال وشركاه ومن صوصه أيضاً، بصرف النظر عن من يطلقه بعض هؤلاء من تأييد لآل سحاب عامة، أو للشيخ عليش خاصة..

إنه قتال إذن بين النجع والكفر.. قتال لا يدري أحد ما وراءه.. ولكن المنشدين يؤكدون أنه بداية نصر مؤكد يحقق الحلم الكبير.. والكفور المجاورة تؤكد أنها ستشارك فيه بأبنائها ومالها ولا يبدو منها أنها تخطو في

هذا السبيل خطوة واحدة؛ فأبناء النجع أقدر عليه. والشيخ عليش قَدَّرَ لكل شيء موقفاً.

وتعالت صيحات الحرب بين آل سحاب.. والغجر صامتون..!

وجاء رسول من غبريال وشركاه ينصح الشيخ عليش ألَّا يطلق رصاصة عند كفر الغجر، فوعده الشيخ بذلك.. ولكنه سخر من الرسالة في حديث المندرة أمام الناس..

ثم جاء رسول آخر من الخواجه صوصة ينصح ذات النصيحة ويشدِّد عليها.. فوعده الشيخ بذلك. ولكنه كتم الخبر ولم يطلع أحداً عليه.. وقضى ليله مؤرقاً!

وزار عبد الحميد الشيخ المؤرق ليقول له: إنه قتال.. من بدأ كسب..!» وردَّه الشيخ بغير ردّ.. لأن الشيخ يلعب لعبته الكبرى؛ إنه يوقع بين المرابيين، فإذا تمَّت الوقيعة بينهما فلن يعنيه من أمر الغجر وكَفْرهم شيء.. وكفاه سائر الكفور بقول أرهب وحده أرشد آل سحاب جميعاً..!

وكان الوقت صيفاً، والجرن الكبير قد امتلأ بالقمح سنابله.. وكان الحصاد يجري في الحقول.. وأصبح صباح فإذا النار تشتعل في الجرن والحقول.. وإذا اللصوص يعبثون في النجع والقرى المجاورة.. يحرقون ويقتلون وينهبون..

وارتدّ من بقي من الخفراء إلى النجع.. وتقدَّم خفراء اللصوص في أرض النجع والقرى المجاورة حتى صاروا أقرب ما يكونون إلى منازل الناس..

وتدخَّل المرابيان لدى المديرية لإيقاف هذا القتال.. فأُوقف.. وظل آل سحاب مختبئين في منازلهم، وظلّ اللصوص يروحون ويجيئون فوق أرضهم.. يرعون فيها أغنامهم، ولا أحد يردّ كيدهم عن ماله أو ولده..

بكى الغرباء طويلاً.. وبكى أسرى المنضح.. وبكت النساء من فقدن من زوج أو ولد.. وانصرف الكثيرون إلى المقهى يدخنون الحشيش، كأن البلد ليس بلدهم، إنّ الشيخ فعل ذلك وليس لنا في الأمر دخل..

وعلا صوت المنشدين أن الشيخ أعدّ خطة سيراها الناس خلال أيام.. والناس لا يصدُقون.. وأنصار الشيخ في النجع وخارجه لا يصدُقون..

وكانت الخطة.. لقد استقال الشيخ عليش من العمدية، وأحلَّ محله صديقه زكي..!

ـ لمـــاذا؟

ـ إن المرابيـن يريدان تحطيمي.. فسأترك الأرشدية لغيـري؛ لأن أحطِّم نفسي خير من أن أحطِّم بلدي وأهلي...!

إنهــا البطولــة..!

وردّت البطولة إلى الناس نوازع الخيـر والطيبـة؛ نسـوا الكـلاب وما فعلوا.. نسوا الجوع الذي ذاقوه.. نسوا التشريد.. نسوا كل هذا وتذكَّروا شيئاً واحداً؛ الشيخ يضحي بنفسه في سبيل بلده.. فلنمسك به، وليكن ما يكون!

وكان ما أراد أبناء النجع؛ فعاد الشيـخ إلى منصبـه، وقاوم النـاس هـزيمتهم، وربطوا على بـطونهم.. واستقال شيـخ الخفراء، وشيـخ البلد وأعضاء التكية وتولّى الشيخ الأمر كله لينقذ البلد مما تردّت فيه..!

وأصبح الصباح ذات يوم ليقال لهم: إنّ المنضح استقبل بالأمس نصيراً رئيس سلك الكلاب وبعض أعوانه.. والكثير من وكـلاء شيخ الخفراء السابق، وأن هذا الأخير قد لزم داره غاضباً.. إنه لقي بالأمس الشيخ وطالبه بإعادته إلى منصبه أو يستقيلا معاً كما سبق أن اتّفقا.. وإلاّ أصرَّ على شكواه التي تقدَّم بها إلى البندر مطالباً بنصيبه من الأرض التي أصبح الشيخ يملكها بغير وجه حقّ.

ومع الظهر، أرْدت رصاصات بحياة عبد الحميد.. ولكن الفاعل كان مجهولاً..

ولم يشغل هذا الحادث الناس كثيـراً، فقد أراحهم أن انزاح عن صدورهم نصير وأعوانه..

أما الشيخ عبد الحميد فقليل من يعرفه، وكثير من يقتله.. والشيخ يبكيه وكفـاه هذا..

وظهـر نجم خميس وشرارة.. خفيران اشتغلا في سلك الكـلاب فترة.. وآن لهما أن يظهرا بعد أن زال من فوقهما.. أخلصا للشيخ حتى أنهما تجسَّسا على نصير لحسابه، كما تجسَّـسا من قبل على عبد الحميد وغيره، مِمَّن تولى أمر النجع..

منذ أصابت النجع - بل آل سحاب جميعاً - تلك الورطة، والشيخ لا يكاد يبرح داره إلّا لأمر هام، ولم يكن هناك أهم من أن يلقى عمد القرى التي لم تصبها الورطة بسوء عسى أن يجد عندهم مالاً يشتري به قمحاً لنجعه بدلاً عما احترق، وسلاحاً لخفرائه بدلاً عما سلبه منهم اللصوص.. وكان هؤلاء العمد - في مزيج من الحسرة والشماتة والألم - يعطونـه ما يطلب.

فيما عدا ذلك، كان الشيخ - وهو يتولى اسماً كل أعمال النجع - يقبع في داره، يجترّ ذكرياته، ويلعق جراحه؛ إن أُسطورته الكبرى تحطَّمت، وحلمه الكبير تبدَّد، ولعبته بين الكبار انقلبت عليه.. كانت هذه الصورة تحمِّله آلاماً نفسية لا يطيقها بشر؛ هذا الدم الذي أهدر، وهذا المال الذي أُنفق، وهذا الجهد الذي بُذل.. كل هذا ذهب أدراج الرياح، وذهبت معه كرامة قومه، وكثير من أرضه.. والمرابيان الكبيران يختلفان في الظاهر، ويتفقان في إذلاله؛ فبدآ يطالبان بدينهما، ويهدِّدان بالحجز على ما بقي من ارض ومحصول..

ولم يقف الأمر عند تلك الآلام النفسية الشديدة التي تحيط به، فقد بدأ يعاني آلاماً جسمية.. أصابه مرض حار في علاجه، ولجأ إلى طبيب وأكثر في البندر عسى أن يجد عنده علاجاً لمرضه الذي تبرّحه آلامه، ولكن الطبيب حار في مرضه، ولم يجد له إلاّ بعض المسكِّنات، تَصْلُح حيناً، ثم يكفُّ مفعولها.. وتعود آلام أمعائه تعصره فيتلوى وحيداً، وتعود آلام نفسه تشقُّ عليه فتملأ عينيه دموعاً يكفكفها ليلقى الناس - إذا لقيهم - بتلك النظرة التي تحمل بجوار غطرسته ضعفاً وحيرة يدعوان إلى الإشفاق.. تلك النظرة التي أشفق وكيل النيابة عليه حين رآها، لأنه لم يملك إلاّ أن يشفق عليه..

ولم يكن الشيخ عليش ممن يحتملون أن يراه أحد الناس يتألم، ولذلك كان يؤثر الخلوة إلى نفسه، وأبغض لقاء الناس، فلم يكن يلقاه إلاّ القليلون.

وعندما انفرد الشيخ بنفسه، كان يستقل بلقائه شرارة وخميس، يقرآن رسائله، ويعاونانه في حساباته، وبعينيهما يرى حال النجع وأبنائه، كان يعلم يقيناً أن شرارة وخميس من الكلاب، ولكن كان في محنته وورطته أحوج ما يكون إلى أن يعتمد على غيره، كان كالأعمى يقوده كلبان، فهو لا يثق في كلب واحد أبداً..

وأحسَّ شرارة وخميس بمكانتهما، فاتُّفقا على أن يتعاونا لأن رأس نصير علّمهما أن لا يأمنا على أنفسهما بطش الشيخ إن أراد، وهو إن أراد فسيجد حتماً من يعينه.. اتفقا على أن يحتفظا بالسلطة في النجع، وتدخُّلا - معاً - في شئون أُخرى قلّما تدخَّل فيها نصير.. كانت التكية مجالاً لهما، ففيها يستطيع الكثير أن يزيد دخله.. فاستوليا على شئونها باسم الشيخ، وجعلوها فرقاً تتخاصم وتتجسَّس لحسابهما، أو لحساب أحدهما.. ولكن الغاية من ذلك - كما أكّدا دائماً - ضمان سلامة الشيخ وخروجه من ورطته. ثم تدخّلا في مجالس العرب، فقرّبا من أعضائها من

قرْبا، وغضبا على من لم يسلم قياده لهما.. ومجالس العرب كانت عنواناً للحقِّ في الكَفْر يستطيع أي واحد أن يحصل عن طريقها على حقِّه، وكان الشيخ ـ حين كان مستطيعاً أن يتولى الأمور بنفسه ـ لا يبدو منه اعتداء على مجالس العرب وأعضائها بعد فعلته بعبد الرازق؛ كان يكتفي بأن لا تنظر تلك المجالس أُمور الأسرى الذين غصّت بهم المنضحات المتزايدة في النجع.. وجاء تلامذته ـ أو تلامذة تلامذته ـ يرون في مجالس العرب نوعاً من الخطر عليهم، كما رأوا ذلك في تلاميذ المدرسة، وعمال النسيج.. فبدأوا بشراء ضمائر من تشترى ضمائرهم، ثُمّ استطاعوا بعد حين أن ينحُّوا عن مجالس القضاء من ينحّوهم.. وقد مهّدت الظروف لهما في ذلك، حين قال الشيخ شيئاً، واستجاب له الناس، فاعتبرت استجابتهم له تمرّداً.

ذلك أن الشيخ ـ بعد موت «عبد الحميد» وأسْرِ «نصير» وأعوانهما، ذكر في حديث له أنّ من أسباب الورطة خوف الناس من الكلاب وفعالهم، وأن نجاة النجع سببها سيادة التقاليد وضمان حرية الناس ومشاورتهم في شئون نجعهم.. وصدّق بعض من سمعوا هذا الكلام أنّ الشيخ يعنيه، ولا يدري أحد ما إذا كان الشيخ يعني كلامه أم لا، ولكن الذي يدريه الجميع أن الكلاب تأبى ذلك لأنه يهدِّد سلطانها ويضعف شوكتها..

واجتمع التلاميذ يوماً ينادون بسيادة التقاليد، وضمان حرية الناس ومشاركتهم في شئون النجع. ذاعت الكلمات التي تحدّث بها الشيخ، وقال إنها سند التصحيح في البلد، حتى تتمكن أن تقوم من عثرتها وتخرج من ورطتها..

وتنادى مع الطلبة جمع من العمال، ينادون ذات النداء، ويطالبون ذات المطالب.. واتّجه الجميع إلى التكية ليعلنوا رأيهم، متضامنين مع الفهم الجديد للتصحيح الذي يجعل للأرشدية معنى يعود على الجميع بالخير..

وفي التكية كان عبد الصمد أفندي.. فالتقوا به، وناقشوا معه الأمر.. فأيّدهم فيما يقولون. لا يدري أحد ماذا تمّ بين الشيخ عليش وعبد الصمد أفندي بعد لقاء الأخير بالتلاميذ والعمال، ولكن شرارة وخميس أشاعا أنّ الشيخ عنّفه أن يتدخل فيما لا شأن له به، وبدا للناس أنّ هذه الإشاعة كاذبة حين أعلن الشيخ على الناس يوماً أمراً بسيادة التقاليد وحرية الأفراد في تنظيم الشورى بين أبناء النجع. ومع ذلك بقي من بقـــي أسيراً ومن شُرّد في الخارج مشرّداً، وقيل أن الأمر في سبيله إلى التنفيــذ.

ويبـــدو أن بعض أعضاء مجالس العرب صدّقوا الأمر، وهم أعلم الناس بالتقاليد، فاجتمعوا، وأبلغوا الشيخ - عن طريق رئيسهم - اقتراحاتهم لضمان سيادة التقاليد في النجع، وأنحوا باللائمة على التوسُّع في إنشاء مجالس الخفراء التي كادت أن تحلّ محلّ مجالس القضاء في كل اختصاصاتها، ولم يستطع رئيس مجالس العرب أن يلقى الشيخ الذي يحجب بابه شرارة وخميس، فاكتفى ان يبلّغ خميساً الاقتراحات.. ولا يدري احد إلى الآن على أي نحو أبلغ خميس سيده تلك المقترحــات.

وصوّر الكلبان الكبيران الأمر تمـرّداً، لأنّ كل تجمُّـع يعني عندهم التمرد، أو هم يحرصون على اعتباره كذلك، حتى إذا كان هذا النجع يعبّر عن ذات ما قاله الشيخ. فللشيخ وأعوانه أن يقولوا ما يشاءون، ولكن الآخرين لا يملكون حتى شرح ذات الكلام.. كل ما يمكنه الأخرون أن يردّدوا الهتاف بصدق ما قال الزعيم، هكذا في عمومية لا يحقُّ لها أن تشرح أو تخصّص أو تعطي سبيلاً لتنفيذ ما يقال من قديم ولم ير التنفيذ يوماً.

وغضب الشيخ، أو هكذا قيل، على أبناء النجع وعلى الناس جميعاً.. كره معاونيه، وكره أعداءه، وكره نفسه.. وكره حياته. وأشاع المغرضون أنّ كراهية الشيخ للناس أغذت بعض العمد، أو أنه هو الذي أغراهم بأبناء

قراهم، فراحوا يضطهدونهم أشد الاضطهاد يذبحونهم ويأسرونهم ويذيقونهم العذاب..

أما الذي حدث في النجع، أنّ الناس عاشوا في ضيق شديد وسخط بالغ، لم يعد أحد منهم يصدِّق ما يسمع. أو يستطيع أن يحدِّث غيره بما في نفسه. اللصوص سرقوا بعض الأرض، والكلاب سرقوا بقيتها.. والشيخ رابض في مقره يخشاه الناس وقلّما استطاعوا رؤيته. لقد أصبح «كخيال المقاثة» يخشاه الطيور، وتحركه أيدي من وضعوه.. ولا يدري أحد من الذي وضعه هناك، ومن الذي أبقاه بعد أن انهار أو كاد أن ينهار.

واجتاحت الكوليرا البلاد.. ولكنها لم تقترب من النجع، كأنما تخشى هي أيضاً ذلك العملاق الأسمر الذي يخشاه الجميع. ويخشى هو الليل إذا جاءه فأسلمه لأفكاره.. وذكرياته.. وآلامه..

وكان مساء، وإذا الناس في النجع يقولون إنْ الشيخ قد مات، تسللت الكوليرا بخفة، بل دارت، واختطفته في ساعات.. وتناقل السامعون الخبر فبلغ الكفور والنجوع والقرى والبنادر. مات الشيخ الذي كان عماد هذا البناء الضخم. وبكى قوم، وفكّر قوم فيمن يخلفه ويرث مكانه.. وصمت الكثيـرون..

وقال خفيـر لزميله قبل أن ينشر الخبـر:

ـ اليوم انقضت ثلاثة شهور على موت الشيخ عبد الحميـد..!

ـ وشهر واحد على موت الشيخ راضي..!

وسمع الحديث طفل صغير، فعجب أن زاد عدد الشيوخ في البلدة، وعهده أن ليس بها غير شيخ واحد.. فعاد إلى بيته مسرعاً يردِّد ما سمع إلى أُمه، فانهالت دموعها وهي تقول: اليوم تَقِرّ عظام أبيك في قبـره..!

ـ لمــاذا؟

ـ لقد مات الشيخ عليــش..

وكان عبد الصمد أفندي في زيارتها، فهرول صامتاً إلى بيت الشيخ عند السفــح.

* * * * *

[١٣]

اجتمع عدد من المقرَّبين إلى الشيخ، والذين كانوا يوماً من المقرّبين إليه، اجتمعوا في المندرة بمنزله، غير بعيد من الجثمان المسجى في الغرفة المجاورة، كانوا - جميعاً - يبكون الشيخ، ويناقشون سير جنازته في الغد، ويتحسبون لطيران نعشه. . وكيف لا يطير نعش مثله وقد طارت نعوش من قبله تحمل جثماناً أقل منه طهراً. . ! وكان بعضهم يتحسب أيضاً لأمثال أن يتوغل اللصوص في أراضيهم أكثر وقد فقد النجع عماده. . ! ولكن شيئاً من هذين لم يحدث، فلا الشيخ طار، ولا اللصوص أغاروا، بل أُشيع أن شيخ الغجر أرسل إلى نجع سحاب عزاءً رقيقاً عن طريق مندوب المديرية في الصلح.

ولكن شيئاً آخر كان يشغل المجتمعين. . كان السؤال الكبيـــر. . . :

لقد مات الشيخ . . وبعد. . ؟ من سيخلفه. . ؟

وكان طبيعياً أن تخطر على الأذهان أسماء؛ الشيخ محمـود العاقـل الهادىء. . عبد الحي القوي الذي استخلفه الشيخ يوماً. . عم رياض الذي كان يوماً أحد دعائم حكم الشيخ. . عبد الصمد أفندي الرجل الطيب الذي ظلّ غير بعيد عن الشيخ. . صابر الذي أرسله الشيخ يوماً إلى صوصة لمزيد من القروض. . ؟ كل هؤلاء ورد اسمهم في أذهان المجتمعين، والمنشدون صامتون ينتظرون لمن ستكون الأغنية القادمة. . وشرارة وخميس وأعوانهما صامتون، يخشون أن يأتي من يطيعونه، ويأملون أن يكون القادم أسطورة

جديدة تظلّ في بيتها يرهبون الناس اسمها. أو واحداً يسيّرونه أو يشاركونه. . !

وخرج التساؤل من هذا الجمع الصغير إلى النجع وخارجه. . فراح الجميع يطرحون السؤال الكبير؟ لقد مات الشيخ. . وبعد؟ من سيخلفه. . ؟ أما داخل النجع فلم يجد السؤال جواباً، لأنّ الناس تخشى أن تجيب. .

أما خارج النجع فراح كل واحد يجيب كما يشاء. . أو كما يرى منه مصلحته. . أو يسوقه إليه صدق اجتهاده. . فعمد القرى يتساءلون. . وأهل القرى يتساءلون. . والمركز والمديرية يتساءلون. . وغبريال وصوصه يتساءلون. . حتى الغجر في قربتهم ومواقعهم يتساءلون. . كل هؤلاء يتكهنون بالخليفة عن علم أو أمل. .

وأشيع أن أنشودة انطلقت لتذكر عبد الحي بالخير، كصديق لكفاح طويل، وكرجل استخلفه الشيخ يوماً. . كعمدة قويّ حازم يمكن أن يسدّ بعض الفراغ الذي خلفه الشيخ وراءه. . وأخيراً كشخص يمكن أن يطمئن إليه غبريال وشركاه الذين يقال إنهم دعامة الغجر الأولى وأقدر الناس على الضغط عليهم. . وأضافت الأنشودة أن عبد الحي بقي الليل كله بجوار الجثمان، وحضر غسله. . وإذا بالناس يرونه يتصدّر الجنازة في اليوم التالي.

* . * . *

لم يشهد النجع، ولا غيره في قرى المديرية ومدنها، جنازة كجنازة الشيخ، فعدد القادمين من البلاد، ومقامهم للسير في الجنازة جاوز المألوف، فما من عمدة لم يحضر، وما من مركز من مراكز المديرية لم يبعث عنه أكثر من معزٍّ. . وتوافدت الآلاف من آل سحاب من المركز يتزاحمون للسير في جنازة شيخ آل سحاب بغير منازع. . وما بقي واحد في النجع لم يسر في الجنازة إلى منتهاها حتى ووري الشيخ التراب، وليس

حتماً أن كل هؤلاء كان محباً للشيخ، ولكن الذي حدث أن كلهم بكى وانتحب، وأعلن عن شعوره بفقدان من فقدوا، تساوى في هذا البكاء والنحيب واعلان الشعور المحبون والكارهون والمحايدون.. وكلهم صادق في إعجابه بالشيخ، سواء كان هذا الإعجاب مقروناً بحبٍ أو برهبة.. أو بكراهية، فعند الموت تزول الكراهية، وخاصة إذا كان الميت عملاقاً، لا ينازع في ذلك أحد.

وظل المأتم بعد الجنازة قائماً أياماً كثيرة، يعزي فيه الناس ويتلقون العزاء. ولا يستطيع أحد أن يحدِّد من الذي يعزي ومن الذي يتقبل العزاء، فالنجع كله ـ بل وآل سحاب جميعاً ـ يتقبلون العزاء في الفقيد الكبير. النجع كله ـ بل آل سحاب جميعاً ـ تنتحب نساؤهم،ومن لا تسعفها الدموع تجلس واجمة من هول الحدث الكبير.

ترك صابر وشرارة وخميس وجمع التكية الناس يبكون ويتبادلون العزاء وراحوا يفكرون في مستقبل النجع.. هكذا قالوا.. وإن قال أكثر الناس إنهم كانوا يفكرون في مستقبلهم هم لو أن عبد الحي خلف الشيخ. كلهم كان يوماً ما صبياً من صبيان عبد الحي، فهو يخشاه.. وأشد ما يخشى منه أنه لن يكون «خيالاً للمقاتة». والناس لا يريدون عبد الحي وإن نسوا سيئاته، لقد أعياهم أن يكون العمدة رجلاً قوياً، إنهم يريدون عمدة سمحاً طيباً يفهم متاعبهم ويواسي طموحهم. وهم يتلفتون، ويكاد كل منهم أن يختار، ولكنه لا يجوز مع ذلك لأن التكية وحدها هي صاحبة الحق في الاختيار، وما على الناس بعد ذلك إلا أن يوافقوا على الاختيار.

وما انفض المأتم حتى خرجت التكية بترشيحها لخليفة شيخ آل سحاب.. وكان مرشحها عبد الصمد أفندي.. مرشحاً وحيداً ارتضته أركان التكية، وعلى الناس أن يقولوا رأيهم فيه. وسرت اشاعة صاحبت الترشيح ـ لا يدري أحد مطلقها ـ تقول إنُ عبد الصمد أفندي أضعف من أن يسير

بالنجع نحو هدفه، وأقلّ خبرة وعبقرية من أن يسدّ الفراغ الكبير الذي تركه الشيخ عليش..

وبرغم هذه الشائعة، وبرغم عدم رضاء الناس على أسلوب الترشيح، فقد تنفّس أغلب أبناء النجع - من يعيش فيه والغرباء - تنفّس الرضا. فهم يريدون رجلاً صاحب الرحلة الطويلة التي سارها الشيخ فعلم أسرارها، وهم يريدون رجلاً طيباً،فالشدة وحدها لم تنفعهم - على طول الشقة - شيئاً، بل ضيّعت عليهم الكثير من أمنهم وآمالهم. ولهذا وافق أبناء النجع على أن يتولى شئونه عبد الصمد أفندي.. وإن لم يعتبره آل سحاب في سائر الكفور شيخاً لهم بعد، وما كان لهم شأن في اختياره، فلكل قرية عمدتها، وإن جمعتهم كلهم آمال آل سحاب وأمجادهم السابقة.

وأصبح عبد الصمد أفندي - أو الشيخ عبد الصمد كما أسماه أبناء النجع والمنشدون - أرشد نجع سحاب، وعيّنته المديرية عمدة للبلد.. وانتقل بعائلته إلى النجع ليسكن منزله الذي كان يتردد عليه أحياناً أيام كان يسكن البندر ليعلم أولاده ويتردد على النجع ليتولى أعماله التي تؤكّد الشائعات أنها لم تكن شيئاً على الاطلاق.

—....—....—

—...—

المحتويـــــات

الاهـــداء	٥
الفصـــل الأول	٧
الفصـل الثانـي	١٧
الفصـل الثالث	٢٤
الفصـل الرابع	٣٢
الفصل الخامـــس	٣٩
الفصل السادس	٤٦
الفصـل السابع	٥٥
الفصل الثامن	٦١
الفصـــل التاسع	٧٢
الفصـــل العاشــر	٧٩
الفصل الحـادي عشـــر	٨٨
الفصل الثاني عشر	٩٤
الفصـــل الثالث عشـــر	١٠٤
المحتويـــــات	١٠٩
كتـــب للمؤلـــف	١١٠

* . * . * . * . *

من آثار المؤلف المنشورة بدار الفتح

- مع القرآن . . زاد الرحلة الأولى في كتاب الله
[تفسير سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران].
- تفسير سورة النساء.
- تفسير سورة الإسراء.
- قلب آخر . . لأجل الزعيم (مسرحية).
- تركة الشيخ عليش (قصة رمزية). (هذا الكتاب).
- الأيام الحاسمة وحصادها
- حصاد الأيام أو مذكرات هارب.
- هكذا نربـي أولادنـا.

— . . — . . — . . —